العلاء بن الحضرمي

مِن أبطال الإسلام

العَلاء بن الحضرمي

« أحد كتاب الوحي ، وأمير البحرين على عهد رسول الله ﷺ ، وأول من فتح الطريق لحرب فارس ، وصاحب الدعوة المجابة .

« رضي الله عنه »

تأليف

أحمد عبد الجواد الدومي — حسن صالح العنافي

منشورات المكتبة العصرية

بيروت - صيدا

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين .

وبعد :

فهذه سلسلة من أبطال الاسلام نقدمها للقراء الأعزاء في تتابع معقول ، وترابط موصول باذن الله ولا حول ولا قوة إلا به .

وشاءالله عزوجل — ونعم ماشاء — ان تكون الصفحة الأولى من أبطال الاسلام عن العلاء بن الحضرمي ، ولعل هذا البحث يعتبر اوسع بحث ظهر إلى الآن عن هذا الصحابي الجليل ذلك القائد المؤمن ، والمجاهد الداعية . صاحب اليقين الثابت ، والتأثير النافذ ، والبصيرة الهادية ، والدعوة المجابة .

أحد كتّاب الوحي ، واامير البحرين على عهد رسول الله ﷺ . والصاحبين من بعده ، أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

وكان صاحب لواء في حروب الردّة . وبايمانه وشجاعته وشفافية روحه وقلبه ، وصفاء عقله ونفسه ، مكن للاسلام في البحرين بعد انتكاس اهلها ، وارغم انف الشرك ، وعبر البحر إلى جزيرة « دارين » حتى طهرها من المارقين. وكان منطلقاً بدأ منه الطريق إلى دولة الفرس وأبلى البلاء الحسن طول حياته .

وكان مثال القائد الشجاع الرابط الجأش ، الذي يملأ مَن حوله ثباتا ويقيناً

وإيمانا في اشد اوقات المحنة واعسرها .

وفي هذا الوقت الدقيق الذي تبني فيه امتنا العربية المسلمة قوتها ومستقبلها، نلتمس الأسباب الحقيقية التي تعيننا على البناء ، وتساعدنا في مواصلة الكفاح لإسعاد امتنا التي طالما عانت وجاهدت وكافحت .

وكان العلاء صورة مشرقة للمجاهد العظيم الذي تربى في المدرسة المحمدية واهتدى بنورها فكان من الطلائع المباركة الممتازة الذين تحملوا مسئولياتهم بجدارة فكان من الذين يعتز بهم تاريخ الإسلام .

وقد هدفنا من الكتابة عن أبطال الإسلام إلى أهداف أهمها ثلاثة :

الهدف الأول : استيعاب ما فيها من دروس ، بقصد تقليدها والتأسي بها ولذلك كان عنصر التحليل والاستنباط بارزاً في هذه البحوث .

وحظ القارىء من هذا الهدف الهام يتباين ويختلف من شخص إلى آخر وفق تباين الاستعداد والتقبل ودرجة الثقافة وهو أولا وأخيراً ، بعطاء من الله ومدد، وما توفيقنا إلا بالله .

الهدف الثاني : هو إعطاء صورة لشباب هذا الجيل عن جانب هام في الصراع التاريخي الكبير بين الامة الإسلامية وأعدائها ، من خلال التعرف على هذه المجموعة المباركة من القادة ، خصوصاً وان الجيل المعاصر لم تسمح له مشاغل الحياة وظروفها المعقدة بأن يكون على صلة ميسرة بهؤلاء الرجال الأبطال .

فالثقافة العامة للجماهير الآن مزدحمة بتيار من المشاكل المادية التي صرفتها عن الدراسة النافعة لأبطال التاريخ الإسلامي العظيم . فحرمنا الاتصال بهم، والتفاعل معهم ، والاهتداء بهديهم .

هؤلاء الرجال الذين كان لهم شرف الصحبة لرسول الله ﷺ والقرب من عهده ، فتحددت في عقولهم وقلوبهم معاني العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وأعطوا أروع الأمثلة في البذل والتضحية والفداء من أجل بناء الأمة ودفع الظلم عنها ، ورفع راية الإسلام والعربية عالية خفاقة .

لذلك كان أمراً محبباً ولازماً على صاحب العقيدة الدينية أن يتعرف على مصادره الأساسية من رجال الصدر الأول ومن تبعهم باحسان .

وقد رأينا أن يكون الحديث عن كل بطل في إيجاز ما أمكن ، ليمكن استيعابه في وقت قصير ، كما رأينا أن يكون الحديث واضح المعالم ، محدد الغاية ، ملتزماً بالمصادر التاريخية الأصيلة ما استطعنا إلى ذلك من سبيل .

وكل ما نهدف اليه هو إبراز معالم البطولة ليحسن التأسي والاقتداء ، فالتشبه بالصالحين صلاح .

أما الهدف الثالث : من وراء هذه الدراسة فهو : إظهار أوجه الشبه في أسلوب المواجهة بين أمتنا وخصومها قديماً وحديثاً . والنظر إلى هذه المشكلة نظرة تربط القديم بالجديد ، وتصل الماضي بالحاضر .

ذلك ان أجدادنا من الصدر الأول كانت قوتهم المادية أضعف من قوتنا إذا قيست القوتان كل منهما بمقياس عصرها ، كما كانوا فقراء في مواجهة عدو كثير المال وافر العدة ، ومع ذلك فقد استطاعوا بعقيدتهم وكفاحهم وصمودهم أن ينتصروا على أعدائهم الأقوياء الأثرياء . ولذلك كان اسلوبهم في الكفاح ونتائج هذا الكفاح موضع دهشة وعجب . فقد غيروا مجرى التاريخ بصورة تبدو — حتى في نظر المؤرخين — كأنها معجزة .

يقول المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان تحت عنوان « وثبة العرب » ما نصه :

« في التاريخ حوادث ومسائل تبدو خارقة ، تكاد تقصر عن شرحها وتعليلها الظواهر والقوانين الاجتماعية .

ووثبة العرب من قفار مكة إلى غزو العالم القديم ، إحدى هذه الحوادث والمسائل الخارقة .

فمن قفار الجزيرة ، خرج العرب في قلة من العدد وفي نقص من الأهبة والاستعداد لغزو دولتين من أعظم دول التاريخ منعة وضخامة وحضارة ، هما الدولة الرومانية والدولة الفارسية . ولم تقف هذه القبائل التي لم تخرج بعد من غمر البداوة أمام هيبة هاتين الدولتين العظيمتين اللتين اقتسمتا العالم القديم ولم يردها ما تتمتعان به من كفاية حربية مؤثلة وجيوش قوية مظفرة ، وموارد زاخرة لا تنضب .

وكان الظفر حليف هذه القبائل في كل فتح وكل موقعة ، ولم يمض نصف قرن حتى استطاعت ان تبني على انقاض ماهدمت من صروح الدولتين العظيمتين دولة شامخة تناهض أعظم دول التاريخ. تلك معضلة تاريخية يصعب فهمهـــا وشرحها »[1] .

وإذا كان اسلافنا الأوائل قد كافحوا في مثل هذا المناخ الصعب فان المتأمل اليوم يرى تشابهاً كبيراً بين ظروف أمتنا في كفاحها لأعدائها المعاصرين وبـين ظروفها مع أعدائها السابقين .

فالتاريخ يعيد نفسه كما يقال ، وان اختلفت ظروف الزمان والمكان ، وان تباينت التفاصيل . وهي سنة الحياة والكون، فالحياة البشرية تمضي منذ الخليقة وحتى اليوم في طريق متشابكة ، وعلى أنماط متشابهة ، وإذا اختلفت الاحداث التاريخية في بعض الجوانب ، فهذا الاختلاف راجع إلى سنة التطور والارتقاء البشري . فالملامح في الصراع واحـــدة ، والذي يتأمل اليوم معركتنا مـــع الصهيونية يجد :

أن المعركة الضارية المريرة التي يخوضها العرب ضد المخـــطط الصهيوني الاستعماري معركة طويلة الأمد خططت لها الصهيونية العالمية مع الاعـــداء الآخرين منذ عشرات السنين .

ومن هنا كان من حسن التصور لموقف العـــلاء نفسه ألا ندرسه دراسة تجريدية ، وانما لا بد ان نذكر كجزء من المسيرة الاسلاميـــة التي تطورت في علاقاتها مع خصومها إلى صراع ضار مع الصليبيين والتتار. ثم إلى صراع أكثر ضراوة مع الصهيونية وبقية الاعداء .

وهذا يدعونا إلى معايشة روحية وعقلية لرواد الاوائل نأخذ من روحانياتهم وتضحياتهم وإخلاصهم لقضيتنا ما يكون لنا زاداً في كفاحنا وجهادنا في مواصلة مسيرتهم الخالدة .

فلا بد لأصحاب الحق أن يعودوا إلى مصادر قوتهم الأساسية يترسمون خطاها

---

(١) الاستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه « مواقف حاسمة » ص ٩ – ١١ .

ويستلهمونها الصواب .

ولقد أردنا عند الكتابة عن هؤلاء الابطال ان نغوص إلى العبرة من الأحداث ونلقي ضوءاً على هذه الفترة المليئة بالتضحيات ، ولم نتوسع في التواريخ الشخصية وفي المناقب والفضائل لكل بطل . بل قصدنا إلى الإلماعات والالماحات .

ولنتوكل على الله سبحانه ولنبدأ بالعلاء .

« وما لنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » .

وحسبنا الله مبدأ وغاية . فهو نعم المولى ونعم النصير .

أحمد عبد الجواد الدومي　　حسن صالح العناني

القاهرة　١٣٩٢ هـ .　١٩٧٢ م .

مدخل

والرحلة مع العلاء بن الحضرمي تجعلنا نعيش الظروف الصعبة الدقيقة التي كان يعيشها عالمنا الإسلامي بعد وفاة رسول الله ﷺ ، والتي واجهت اول ما واجهت الخليفة الأول أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

لقد ارتد كثير من العرب عن الإسلام .

ولقد حاول البعض ان يتفلسف فلسفة انفصالية باطلة ، فاعترف بالصلاة ومنع الزكاة .

ولقد تنبأ بعض زعماء القبائل وحشد حوله الحشود وجيّش الجيوش وكانت البحرين وما حولها من أخطر هذه المواطن واعقد هذه المسالك ، ولذلك نحب ان نضع هنا مدخلا موجزاً يلقي لنا بعض الاضواء على هذه الاماكن ومسيرة الأحداث .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل ، في كتابه الصديق أبي بكر :

« قضى خالد بن الوليد على المرتدين في بني أسد وبني تميم وفي ربوع اليمامة ، وأعاد من بقي حياً من هذه القبائل إلى حمى الدين القيم .

ومنازل هذه القبائل تمتد من الشمال الشرقي لبلاد العرب حتى تتاخم خليج فارس في شرقها ،وهي تقع كذلك إلى شمال المدينة من الشرق ثم تنحدر حتى الجنوب الشرقي من مكة .

وقد أفسح عودها إلى الاسلام رقعة الدولة التي تدين بالولاء لأبي بكر والتي

كانت حين الردة مقصورة على مثلث من الارض رأسه المدينة وقاعدته بين مكة والطائف .

ولم تكن ثورة القبائل النازلة إلى شمال المدينة بذات خطر تخشى آثاره . فلم يتحدث المؤرخون عن إصرار اهلها على الردة وقتالهم بسببها كما تحدثوا عن بني اسد ، او عن اليمامة ، ليس يستثنى من ذلك إلا دومة الجندل وعلى رأسها أكيدر الكندي ، فقد أصرت دومة وقاتلت حتى أخضعها ابن الوليد وأسر اكيدر وفرغ منه ، وكان إخضاعه إياها أثناء فتحه العراق .

اما في الجنوب فقد بقيت الثورة على أبي بكر والردة عن الإسلام مشبوبتين وبقي القتال ناشباً بسببها بين جيوش المسلمين واهل هذا الجنوب زمناً غير مديد ، وإذا قلت الجنوب قلت النصف من بلاد العرب والنصف الذي لا يستهان به وهذا النصف يشاطيء خليج فارس فخليج عدن فالبحر الاحمر إلى شمال اليمن وتقع فيه ممالك البحرين فعمان فمهرة فحضرموت فكندة فاليمن ، وأنت لا تستطيع ان تتخطى هذه الممالك من الشرق إلى الغرب ، او من الغرب إلى الشرق إلا ان تخترقها جميعاً فكلها تقع تباعاً على شاطيء الخليجين والبحر الاحمر . وكلها فيما خلا اليمن قليلة العرض ، فيما بين حدودها والشاطيء أميال معدودة أما سائر الجنوب من شبه الجزيرة مما تحيط به هذه الممالك وتفصله عن الماء فبادية الدهناء ، هذه الصحراء المخوفة يوم ذاك ، والمخوفة إلى يومنا الحاضر والتي يطلق عليها اليوم اسم الربع الخالي .

أما وذلك موقع هذه البلاد فمن اليسير ان تدرك ما كان بينها وبين فارس من اتصال ، وما كان بينها وبين الشمال من بلاد العرب من شقة لا يسهل قطعها فاجتياز الدهناء لم يكن ممكناً . والمجيء من الحجاز إلى عمان أو كندة أو حضرموت كان يقتضي السير اليها من بلاد البحرين شرقاً أو من اليمن غرباً . هذا الموقع الجغرافي لتلك البلاد جعل لبلاط كسرى من الصلة بها ، بل من السلطان فيها ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب .

ظلت بلاد اليمن في سلطان فارس إلى أن دخل «باذان» في الإسلام وصار عامل النبي ﷺ على اليمن بعد ان كان عامل كسرى عليها وكان سلطان فارس اكثر

وضوحاً في البحرين وعمان وكان من أبناء فارس عـدد عظيم استوطن البحرين وعمان وعلت كلمتهم بين أهليها وكانت فارس تمد أبناءها بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب الخلص عليهم ، أو محاولة هؤلاء العرب القضاء على سلطانها في ربوعهم .

ليس عجيباً إذن أن تكون هذه البلاد آخر من دان بالإسلام على عهد رسول الله في عام الوفود ، وأن تكون أول من ارتد حين قبض ، ثم تكون آخر من يعود إلى الإسلام بعد حروب طاحنة تختم حروب الردة وتعيد إلى البلاد العربية وحدتها الدينية وتقيم فيها الوحدة السياسية .

ويستطرد الدكتور هيكل فيقول :

لا مفر وموقع البلاد الجغرافي ما رأيت أن يبـدأ المسلمون للقضاء على الردة فيها بالسير من البحرين إلى عمـــان فمهرة حتى اليمن ، أو من اليمن إلى كندة فحضرموت حتى البحرين . وقد آثروا أن يبدأوا بالبحرين لأنها كانت تجـــاور اليمامة فكان انتصارهم في موقعة عقرباء ذا أثر فيها . ثم إنها كانت أيسر من اليمن أمراً ، فكان البدء بها أدنى إلى فوز يحر وراءه فوزاً مثله في جميـع البلاد التي تجاورها .

مع ذلك لم يكن المجهود الذي بذله المسلمون للقضاء على الردة بالبحرين يسيرا والبحرين شقة ضيقة من الأرض تشاطيء مع هجر خليج فارس وتمتد من القطيف إلى عمان والصحراء في بعض أنحائها تكاد تتصل بماء الخليج وهي تتصل باليمامة في جزئهـــا الأعلى ، لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التـــلال يهوّن انخفاضهـــا اجتيازها) . اهـ[1]

والبحرين تكون على حالة واحدة في الرفع والنصب والجر ، وسميت البحرين لأن في قراها بحيرة على باب الاحساء وقرى هجر ، وبينها وبين الخليج العربي عشرة فراسخ .

وكان على البحرين الملك النصراني المنذر بن ساوى ، فدعـاه بطلنا العظيم العلاء إلى الاسلام فقبل الدعوة وهداه الله ، وكان ذلك في السنة التاسعة للهجرة. وسيأتي تفصيل ذلك في ثنايا الكتاب .

---

(١) ص ١٨٣

العلاء بن الحضرمي

نسبه

قال ابن سعد :

« العلاء بن الحضرمي — واسم الحضرمي ، عبد الله بن عبّـــاد بن سلمى بن أكبر من حضرموت من اليمن »[1] .

ويقول ابن الأثير في تتمة نسبه : ابن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر بن عويف بن مالك بن الخزرج بن أبي الصدف — ثم قال : ولا يختلفون أنه مـــن حضرموت ، وكان حليف حرب بن أمية بن عبد شمس »[2] .

ويقول ابن كثير في نسبه : [3]

« العلاءبن الحضرمي ،واسم الحضرمي عباد ويقال عبد الله بن عباد بن اكبر بن ربيعة بن عويف ابن مالك بن الخزرج بن اياد بن الصدف بن زيد بن مقنع بن حضرموت بن قحطان — وقيل غير ذلك في نسبه — وهو من حلفاء بني أمية » .

اخوته :

ثم قال : وكان له من الإخوة عشرة غيره فمنهم عمرو بن الحضرمي أول قتيل

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٣٥٦ .

(٢) اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٧ .

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٦٩٢ ، وحرب بن امية بن عبد شمس هو الذي نقل الكتابة من حضرموت الى مكة قبيل الاسلام بعد ان تعلم اصولها في اليمن .

من المشركين قتله المسلمون في سرية عبد الله بن جحش وهي أول سرية ، ومنهم عامر بن الحضرمي – الذي كان في صفوف المشركين يوم بدر ، ومنهم شريح بن الحضرمي وكان من خيار الصحابة ، قال فيه رسول الله ﷺ : « ذاك رجل لا يتوسد القرآن » يعني لا ينام ويتركه بل يقوم بـــه آناء الليل ولهم كلهم اخت واحدة وهي (الصعبة) بنت الحضرمي أم طلحة بن عبيد الله – أحـــد العشرة المبشرين بالجنة »[1] .

ومن إخوة العلاء ايضاً ميمون صاحب بئر بالأبطح بأعلى مكة يقال لها بئر ميمون، وكان قد حفرها في الجاهلية .

إسلامه ومكانته :

قال ابن سعد :

« أسلم العلاء بن الحضرمي قديماً »[2] وقيل انه أسلم قبل فتح مكة . وعده البلاذري : في « كتاب الوحي »[3] .

وكذلك عده ابن كثير من كتّاب الوحي في كتابيه (السيرة النبويـــة) و (البداية والنهاية) .

ولذلك لم يكن غريباً ان يحتل مكانة عظيمة ويكون موضع الثقة في جوانب السياسة والقيادة والحكم . فقد كان رضي الله عنه ، في قيادته وإمارته وامانته وكفاءته موضع تقدير وثقة من الرسول ﷺ ثم من ابي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فقد تولى إمارة البحرين في أيام الرسول ﷺ وصاحبيه من بعده رضي الله عنهما . فكان نعم الأمير العف ، والقـــائد الملهم ، والمؤمن التقي الحريص على دينه .

وقد بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين

---

(١) ويقال ان « الصعبة » اسم لام العلاء .

(٢) الطبقات ج ٤ ص ٣٥٩ .

(١) اعلام النبلاء ص ١٩٠ ط دار المعارف .

ثم ولاه عليها أميراً حين افتتحها ، وأقره عليها الصديق ، ثم عمر بن الخطاب »[1] .

وهذه لمحات سريعة تكشف عن مكانة العلاء بن الحضرمي في هذه المراحل:

ولاية العلاء في عهد الرسول ﷺ

روى ابن سعد بسنده :

« إن رسول الله ﷺ بعثه منصرفه من الجعرانة إلى المنذربن ساوى العبدي بالبحرين ، وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، وخلى بين العلاء الحضرمي وبين الصدقة يجتبيها ، وكتب رسول الله ﷺ للعلاء كتابا فيه فرائض الصدقة ، في الإبل ، والبقر ، والغنم ، والثمار ، والأموال ، وأمره أن يأخذ الصدقة من غنيائهم ، فيردها على فقرائهم ، وبعث رسول الله ﷺ معه نفراً فيهم أبو هريرة وقال له : استوص به خيراً »[2] .

مكانته عند أبي بكر :

وحين تولى أبو بكر أمر المسلمين وحدثت حروب الردة ، اعتمد أبو بكر على أكفأ رجاله وكان من بينهم « العلاء بن الحضرمي » احد الرواد المبرزين .

يقول ابن سعد : « فأجمع أبو بكر بعثة العلاء بن الحضرمي فدعاه فقال : اني وجدتك من عمال رسول الله ﷺ الذين ولاهم ، فرأيت ان اوليك ما كان رسول الله ﷺ ولاك ، فعليك بتقوى الله »[3] .

هذا فضلا عن كتاب القيادة الذي أعطاه الصديق أبو بكر إلى العلاء بداية مسيرته لحرب المرتدين .

رأي عمر في ولاية العلاء بن الحضرمي :

أما رأي سيدنا عمر بن الخطاب في ولاية العلاء وتحمله للمسؤولية فقد كان

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ٣٦٠ .

(٣) الطبقات ج ٤ ص ٣٦١ .

مما يعد في صفحات العلاء المضيئة المشرقة التي يفاخر بها تاريخه ، وتضعه في المكان الذي يليق به القواد والولاة .

ذكر ابن سعد ان عمر بن الخطاب كتب كتاباً إلى العلاء جاء فيه : « واعلم انك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى لم أعزله الا يكون عفيفاً صليباً شديد البأس ، ولكني ظننت انك اغنى عن المسلمين في تلك الناحية منه فاعرف له حقه »[1] .

ويتضح من رأي عمر الذي ذكره ابن سعد في العلاء بن الحضرمي انه يشهد له بسعة الخبرة ، وجودة الكفاءة .

العلاء في حياته العملية

أول ما يلفت انظارنا في شخصية العلاء انه كان شديد الصلة برسول الله ﷺ وكان رضي الله عنه حريصاً (في قيادته) غاية الحرص على مرضاته ﷺ ، والالتزام بتعاليمه وبدا هذا واضحاً في حياته كلها . ويبرز ذلك حين تولى مسؤولية الولاية منذ اول لحظاتها على يد الرسول ﷺ .

« يقول أبو هريرة : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العلاء بن الحضرمي وأوصاه بي خيراً ، فلما فصلنا قال لي : إن رسول الله ﷺ قد اوصاني بك خيراً ، فانظر ماذا تحب ؟ قال قلت : تجعلني أؤذن لك ».

* * *

هذه الحادثة على بساطتها تدلنا على مدى حرص العلاء بن الحضرمي على طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يكتفي باحسان الصحبة لأبي هريرة بل يلتمس رغبته وموطن رضاه .

وينبغي ان لا نسرع التفكير ، بل نتأنى في النظر ونحن نرى رغبات الصحابة

---

(١) الطبقات ج ٤ ص ٣٦٢ – والمفاضلة ما بين العلاء وبين (عتبه بن غزوان) وهو من المهاجرين السابقين ، وهله شهادة من عمر رضي الله عنه للذي يرى بنور الله بأن العلاء هو الاغنى والاصلح للمسلمين لسعة تجربته وزيادة كفاءته .

عليهم رضوان الله وكيف انها كانت لا تدور حول الدنيا ومنافعها وشهواتها ، وإنما كانت تدور حول ما يقربهم إلى الله سبحانه ، ويضاعف من ثوابهم عنده ، وواضح ذلك من المحاورة التي دارت بين العلاء بن الحضرمي وابي هريرة رضي الله عنهما ، عن الأذان والصلاة .

ومعنى ذلك عمق الإيمان في نفوس الطليعة الخيّرة من اصحاب النبي محمد ﷺ وتلك هي حقيقة الحقـــائق ، وسر الأسرار في توفيقهم ونجاحهم وانتصارهم ، فالتعفف عن الدنيا ورغباتها وشهواتها، تجعل اهتمامات المرء تدور حول المباديء الفاضلة والقيم الكبيرة الكريمة ، ومرضاة الله سبحانه ، من هنا تصفو النظرة وتتضح الفكرة ، ويستقيم السلوك ، ويتلاءم الفرد مع كل ما حوله ، ويواتيه من الله مدد لا ينضب ولا ينقطع ، فانه إذا صح العزم وضح السبيل كما يقولون .

* * *

ومما يدل ايضاً على شدة الارتباط العقلي والقلبي بين العلاء وبين رسول الله عليه صلوات الله ان العلاء قد روى عن النبي ﷺ بعض الأحاديث الدالة عـلى الالتحام والتجاوب والتفاعل بين العلاء الوالي بالبحرين وبين القائد النبي ﷺ بالمدينة — على ما بين البلدين من شُقة واسعة — كالحديث الذي رواه الإمامان : احمد ، وابن ماجه ، من طريق محمد بن زيد عن جهاد الأعرج عن العلاء الحضرمي أنه كتب إلى رسول الله ﷺ من البحرين في الحائط — يعني البستان — يكون بين الأخوة فيسلم احدهم ؟ ، فأمره أن يأخذ العُشر ممن اسلم والخراج — يعني ممن لم يسلم — (١) .

ويدل هذا الحديث على نوع من القضايا والمشاكل التي كانت تقابل العلاء في المجتمع الجديد ، وتعرض له اثناء فترة الانتقال بالناس من دين إلى دين ومـن نظام إلى نظام ، كما يدل هذا الحديث في نفس الوقت — كما سبق ان اشرنا — على مدى قوة الالتزام بردّ الأمور التي لا يعلمها ولم تسبق التجربة العملية لمعرفتها

---

(١) ص ٦٩٣ — ٦٩٤ ج ٤ السيرة النبوية لابن كثير .

إلى رسول الله ﷺ حتى يتلقى توجيهه وامره ﷺ ليحكم بين الناس بحكم الله ورسوله .

* * *

سياسة العلاء الحاكم

بدأت اعمال العلاء في عهد سيدنا رسول الله ﷺ أثناء ولايته على البحرين هادئة ولكن العلاء كان دائم اليقظة ، شديد الحرص على التمكين للدعوة ، فقد كان رضي الله عنه على استعداد كامل خصوصاً بعد ان اعانه المنذر بن ساوى واسلم هو وجميع العرب الخاضعين له بالبحرين . وقد كان العلاء يعرض الإسلام او الجزية على اهل البحرين وصالح اهل الكتاب من اهل البلاد على الجزية من كل حالم دينار ،ولم يكن بالبحرين قتال إنما بعضهم اسلم وبعضهم صالح »[1].

ومعنى كلام ابن الأثير حين يقول « لم يكن بالبحرين قتال إنما بعضهم اسلم وبعضهم صالح » انه كان من الممكن ان يحدث قتال لو سارت الأمور على غير الوجه الذي سارت فيه ، وهذا الموقف يحسب للعلاء في ميزان حسن تصرفه ونجاحه في إبلاغ الإسلام وكسب اهل البحرين بطريق الحسنى من غير قتال ، ومما يرجح كفة العلاء في هذه السياسة الهادئة معرفتنا أن (البحرين) كانت تدين بالولاء للفرس ، وكانت دولة الفرس دولة طغيان وجبروت ، وهي ملاصقة للبحرين يضاف إلى ذلك بعدها عن مركز المسلمين بالمدينة ، فكانت الحكمة والكياسة هي أنسب لون سياسي لهذا الظرف .

العلاء القائد

لكن البداية الحقيقية التي تضع العلاء بن الحضرمي في مصاف القواد المسلمين في الصدر الأول هي تولية أبي بكر له قيادة جيش لمحاربة المرتدين في البحرين وقد كان العلاء بهذا واحداً من احد عشر رجلاً اعتمد عليهم ابو بكر

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٨٩ .

وهو تقدير خاص من ابي بكر لا يكون إلا في موضعه ، ولا تخفى دلالته .

* * *

ولقد كانت الظروف التي اختار فيها أبو بكر رضي الله عنه العلاء للقيادة والولاية ظروفاً شديدة وعصيبة ، فقد اهتزت الكثرة الكثيرة من عامة الجماهير ودهماء الناس ، من أولئك الذين تأثروا بمجرد مظهر القوة والانتصار والغلبة التي حصل عليها المسلمون ، فدخلوا في الإسلام مبهورين بهذا المظهر مشدودين اليه بالتقليد والمحاكاة ، دون عمق أو اقتناع يكفيان للثبات على المبدأ والتمسك بالعقيدة مما أدى إلى انتكاس الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول ﷺ ، وارتدادها على اعقابها وانتفاضها على الخلافة بالمدينة .

يقول ابن الأثير :

(قال عبد الله بن مسعود : لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه لولا ان منّ الله علينا بأبي بكر ، اجمعنا على ان لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون — أي لا نقاتل مانعي الزكاة ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبي بكر على قتالهم) (١) .

وقبل أن نعرض لبعض التفاصيل الضرورية التي انبثقت منها شخصية العلاء ابن الحضرمي كقائد عبقري أسهم في حفظ الأمة من الضياع ، نود ان نشير إلى ملاحظة هامة تثير الانتباه إلى هذه الروايات التي أجمعت عليها المصادر التاريخية الصحيحة التي تتحدث عن الدوافع التي حدث بالناس إلى الانتقاض والردة والتي تتمثل أساساً في رغبة المرتدين في أن يمتنعوا عن دفع الزكاة ، حيث كاد غالبية الصحابة أن يجمعوا على التسليم بالأمر الواقع لأصحاب هذا الهوى ، فقد رأوا عدم قتال مانعي الزكاة خاصة وان اصحاب هذه الضلالة كانوا يرون من جانبهم التسليم النظري بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، في نفس الوقت الذي يمتنعون فيه عن دفع الزكاة ، مما سهل على الصحابة قبول الأمر الواقع خوفاً من الفتنة لولا أن عزم الله لأبي بكر على قتالهم . ونورد هنا نموذجاً خاصاً بمنطقة عمان .

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٣٩ .

والبحرين يدل على وجود هذا الدافع المادي عند المرتدين في المنطقة التي كانت مسرحاً لنشاط العلاء بن الحضرمي السياسي والعسكري .

يقول ابن الأثير :

كان رسول الله ﷺ قد أرسل عمرو بن العاص إلى جيفر عند منصرفه من حجة الوداع فمات رسول الله ﷺ وعمرو بعُمان فأقبل حتى انتهى إلى البحرين فوجد المنذر بن ساوى في الموت ثم خرج عنه إلى بلاد بني عامر فنزل بقرّة بن هبيرة وقرّة يقدّم رجلا ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مثواه ، فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال : يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالأتاوة ، فلو أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم . فقال له عمرو : أكفرت يا قرّة ؟ اتخوفنا بالعرب . فوالله لأوطئنّ عليك الخيل في حفش امك واحفاش بيت ينفرد فيه النفساء، وقدم على المسلمين بالمدينة فأخبرهم فأطافوا به يسألونه فأخبرهم ان العساكر معسكرة من دبيء إلى المدينة فتفرقوا وتحلقوا حُلقاً وأقبل عمر يريد التسليم على عمرو فمر على حلقة فيها علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا فقال لهم :انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب قالوا : صدقت قال : فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم ،والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم، ومضى عمر فلما قُدم بقرّة بن هبيرة على أبي بكر أسيراً استشهد بعمرو على إسلامه فأحضر أبو بكر عمراً فسأله فأخبره بقول قرة إلى أن وصل ذكر الزكاة فقال قرة : مهلا يا عمرو فقال: كلا والله لأخبرنه بجميعه فعفا عنه أبو بكر وقبل إسلامه [1] .

* * *

من هذا النص ندرك الدافع الذي كان يسيطر على تفكير العرب المرتدين ، وليست منطقة البحرين إلا نموذجاً للجزيرة العربية كلها ، والملاحظة التي يجب أن

---

(١) ص ١٤٧ الكامل ج ٢

تثير انتباهنا عن هذه الدوافع التي تسببت في الارتداد والانتكاس ، هي ان الناس منذ قديم ينحرفون بغريزة التملك والطمع والشح والأنانية عـــن القيم الواجبة والمعاني الكريمة التي تهدف إلى المساواة والحد من الفوارق بين الاغنياء والفقراء. وان الاسلام يضع في اعتباره الأسس والقواعد التي تقوم بتهذيب السلوك والغرائز، على أساس من الحب والتعاون والمساواة .

والمعنى العميق القوي لوقفة ابي بكر بالكلمة والسيف في وجه هؤلاء هذه الوقفة التي أدت إلى إجماع الصحابة جميعاً على الوقوف معه ضد هؤلاء : ان روح الإسلام الذي أودعه الله قلب رسول الله ﷺ وقلوب اصحابـه يفرض على كل مسلم يشهد ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يدافع ويكافح بكل ما أوتي من قوة عن هذه المباديء الخالدة التي تجعل من المجتمع كله اسرة واحدة ارتباطاً بالعاطفة ، واقتناعاً بالعمل الخير ، وتطبيقاً جاداً مخلصاً للقيم والمباديء ، حتى تتحول الشعارات التي ننادي بها إلى حقيقة تُرى وتُلمس ، فيجني الناس ثمارها فوائد عملية يحسون نفعها في حياتهم ، ويشمون شذاها وعبيرها الطيب فتطمئن وتستريح قلوبهم ونفوسهم ، وكل مؤمن بالله يحاول التقرب إلى الله بمثل هـــذه العلاقات الاجتماعية الكريمة يسهم إسهاماً مباشراً في بناء بلده وامته على الأساس الذي يرضي الله سبحانه .

موقف العلاء في حروب الردة

كان أبو بكر رضي الله عنه بعد تسييره جيش أسامة بعد احد عشر جيشاً قويا لمواجهة هذه النكسة في قوة وحزم ، واعلنها صريحة عالية : انه سيحرس المباديء العظيمة وقال في بيانه الوجيز القصير : « والله لو منعوني عناقاً او عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها » .

وكان للعلاء من اهم سواعد ابي بكر التي امتدت في قوة واقتدار فأدارت وجه الجزيرة العربية نحو الإسلام من جديد .

وعقد ابو بكر العلاء بن الحضرمي وأمّره بالبحرين ، ففصلت الأمراء من ذي القصة ولحق بكل امير جنده وعهد إلى كل امير ، وكتب إلى جميع المرتدين نسخة واحدة ، يأمرهم بمراجعة الإسلام ويحذرهم ، وسير اليهم الكتب مع رسله (١) .

تلك هي الظروف القاسية التي تسلم فيها العلاء بن الحضرمي كتابين من الخليفة ابي بكر رضي الله عنه ، وجه احدهما إلى العلاء بن الحضرمي وقد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم :

هذا عهد من ابي بكر خليفة رسول الله ﷺ للعلاء بن الحضرمي حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سره وجهره ، وامره بالجد في امر الله ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٤٤ .

الإسلام إلى امانيّ الشيطان بعد ان يُعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام ، فان اجابوه امسك عنهم ، وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم فيأخذ ماعليهم ، ويعطيهم الذي لهم ، لا يُنظِرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن اجاب إلى امر الله واقر له قبل ذلك منه واعانه عليه بالمعروف ، وانما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله فاذا اجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به . ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مرغمة ، لا يقبل الله من احد شيئاً مما اعطى إلا الإسلام ، فمن اجابه واقر ، قبل منه واعانه . ومن قاتله فان اظهره الله عليه عزوجل قتلهم فيه كل قتلة ثم قسم ما افاء الله إلا الخمس فانه يبلغناه ويمنع اصحابه العجلة ، والفساد ، وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وان يقتصد بالمسلمين ، ويرفق بهم في السير والمنزل ، ويتفقدهم ، ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ، ولين القول »[1] .

اما الكتاب الثاني فقد وجهه ابو بكر رضي الله عنه إلى المرتدين انفسهم ليكون عوناً وظهيراً للعلاء وبقية قواد الجيوش ، واعذاراً إلى الله والناس ، وقد جاء فيه :

باسم الله الرحمن الرحيم

من ابي بكر خليفة رسول الله ﷺ إلى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة اقام على الإسلام او رجع عنه .

سلام على من اتبع الهدى . ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى .

فاني احمد الله اليكم الذي لا إله إلاهو واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً ﷺ عبده ورسوله واومن بما جاء به .

اما بعد :

فان الله ارسل محمداً ﷺ بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً وداعياً إلى

---

(١) اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للخضري ص ٢٧ — ٢٨ ، وتاريخ الطبري .

الله باذنه وسراجاً منيرا لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين يهدي الله للحق من اجاب اليه وضرب رسول الله ﷺ باذنه من ادبر عنه حتى صار إلى الاسلام طوعاً أو كرهاً .

ثم توفي رسول الله ﷺ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه وكان الله قد بين ذلك لأهل الاسلام فقال: (انك ميت وانهم ميتون) وقال: (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افإن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل افإن مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) .

فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فان الله بالمرصاد حي قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم حافظ لأمره منتقم من عدوه بحزبه . واني اوصيكم بتقوى الله وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم ، وان تهتدوا بهديه وان تعتصموا بدين الله عز وجل فإن من لم يهده الله ضل وكل من لم يعرفه مبتلى وكل من لم ينصره مخذول ، فمن هداه الله كان مهديا ومن اضله كان ضالا (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقر به ، ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان اقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله عز وجل وجهالة لأمره واجابة للشيطان وقال جل ثناؤه: (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن امر ربه افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) . وقال جل ذكره. (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير) .

واني قد انفذت لكم العلاء بن الحضرمي في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته ان لا يقاتل احداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه واعانه عليه ، ومن ابى يقاتله على ذلك ولا يُبقي على احد منهم قدر عليه وان يقتلهم كل قتلة ويسبي النساء

والذراري ولا يقبل من احد إلا الاسلام ، فمن آمن فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله .

وقد امرت رسولي ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان فان أذن المسلمون فأذنوا كفوا عنهم ، وان لم يؤذنوا فسألوهم بما عليهم فـــان ابوا عاجلوهم وان اقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم [1] .

* * *

حمل العلاء بن الحضرمي هذين الكتابين من الخليفة الصديق ابي بكر ، وكان عليه ان يواجه مسؤوليته الكبيرة في شجاعة وايمان ويقين .

خطورة المهمة التي كلف بها العلاء من حيث المكان والسكان

ان بلاد البحرين بحكم مكانها كانت بعيدة عن عاصمة الاسلام قريبة من الفرس آنذاك ، ويعزلها عن شمال بلاد العرب بادية الدهناء ، وهي صحراء خطيرة مهلكة يطلق عليها « الربع الخالي » ، هذا الموقع الجغرافي لتلك البلاد جعل لبلاط كسرى من الصلة بها بل من السلطان عليها ما لم يكن له بغيرها من بلاد العرب — اما من حيث السكان فكان من ابناء فارس عدد عظيم استوطن البحرين ، وعُمان ، وعلت كلمته بين اهليها وكانت فارس تمد ابناء هؤلاء بنفوذها وبقواتها كلما خشيت ثورة العرب الخلص بهم ... لذلك لم يكن المجهود الذي بذله المسلمون للقضاء على الردة بالبحرين يسيراً . والبحرين شقة ضيقة من الارض تشاطيء مع هجر خليج فارس ... وكان يقيم بها تجار من الهند وفارس تزاوجوا مع ابناء البلاد فاستولدوا بها طائفة دعيت بالأبناء ، وكان ملك هذه الانحاء المنذر بن ساوى العبدي نصرانياً دان بالاسلام حين دعاه العلاء وقد ظل ملكاً على قومه بعـــد إسلامه . وقد مات المنذر في الشهر الذي مات فيه النبي ﷺ فارتد اهل البحرين جميعاً عن الاسلام [2] . وقد سبق أن اشرنا إلى ذلك في المدخل بتوسع اكثر .

---

(١) اتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ الخضري ص ٢٨ — ٣٠ .

(٢) الصديق ابو بكر : محمد حسين هيكل .

متاعب الطريق تتحول إلى مبشرات بالنصر

كان على العلاء بن الحضرمي كي يصل الى بغيته ان يقطع الطريق الصعب الوعر فسلك بالجيش بادية «الدهناء» حتى اذا كانوا في وسطها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت ابلهم بأحمالها فما بقي عندهم بعير ولا مـــاء ولا زاد فلحقهم من الغم ما لا يعلمه الا الله ، ووصى بعضهم بعضا [1] .

هنا تظهر عبقرية العلاء ، وحسن تصرفه ، وقوة ايمانه ، وصلابة احتماله . يقول ابن الاثير : فدعاهم العلاء فاجتمعوا اليه فقال : ما هذا الذي غلب عليكم من الغم فقالوا : كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك. فقال: لن تراعوا انتم المسلمون ، وفي سبيل الله ، وانصار الله ، فأبشروا فوالله لـــن تخذلوا فلما صلوا الصبح ، دعا العلاء ودعوا معه ، فلمع لهم الماء ، فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا ، وما تعالى النهار حتى اقبلت الإبل تجمع من كل وجـــه ، فأناخت اليهم فسقوها [2]

لقد كانت ثقة العلاء وحسن رجائه في الله سبحانه مـــن اهم العوامل التي حولت هذه الظاهرة التي فتت في عضد الجيش الى عامل مـــن عوامل اليقين والتثبيت فانتعش الجيش بالثقة وامتلأ بالأمل في الفوز والنصر، وقوة البراعة في شخصية العلاء بن الحضرمي تتجلى في قدرته على مواجهة موقف كان مـــن المفروض انه يؤدي الى التأثير في معنويات الجيش وزعزعة ثقته ، بل وحدثت فعلا في الجيش هزة وزلزلة شديدة حتى غلب على ظن الجنود انهم لامحالة هالكون وواجهوا القائد كما يقول ابن الاثير بقولهم: « كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك » هذا على فرض بلوغهم في الغد مع ان الطريق بصحرائه لا زال ممتداً أمامهم فكأن الهلكة محققة .

ومع ذلك استغل العلاء هذا الحادث نفسه في اكسابهم ثقة اقوى وقوة اكبر، ولم يداخله الخوف او الهلع لحظة واحدة فأكسب الرجال ثباتا وطمأنينة وحين

(١و٢) الكامل ج ٢ ص ١٥٤.

تحققت بشارته لجنده كانوا اقوى ايمانا بالله واكثر التفافـــاً بقيادتهم واسرع استجابة وطاعة .

وهذا التصرف من العلاء تعبئة معنوية ونفسية لا بد منها للجيش الذي يريد النصر والغلبة ، وان المقدرة على الاحتفاظ للجيش بثباته واتزانه خصوصاً في المواقف التي تهدد بالخطر والهلكة ، لتدل على رباطة الجأش وثبات اليقين وقوة الشجاعة . ولقد كان لهذا الموقف أثره الفعال في ثقة الجند بالله وبأنفسهم وبقيادتهم مما سيأتي ذكره قريباً .

الموقف في البحرين حين وصول العلاء اليها

كانت جميع القبائل قد ارتدت في البحرين حين مات المنذر بن ساوى ، بعد وفاة الرسول ﷺ ولم تبق في المنطقة جماعة مؤمنة إلا ما كان من أمر (الجارود ابن المعلى العبدي) مع قومه من بني عبد القيس وكان (الجارود) قدم على النبي بالمدينة فأسلم وفقه الدين وعاد إلى قومه يدعوهم إلى دين الحق فاستجابوا ولكنهم ارتدوا حين رأوا غيرهم قد ارتد .

ويفصل ابن كثير هذا الموقف فيقول :

كان من خبرهم أن رسول الله ﷺ كان قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى ملكها المنذر بن ساوى العبدي ، وأسلم على يديه وأقام فيهم الاسلام والعدل ، فلما توفي رسول الله ﷺ وتوفي المنذر بعده بقليل وكان قد حضر عنده في مرضه عمرو بن العاص فقال له : يا عمرو هل كان رسول الله ﷺ يجعل للمريض شيئاً من ماله؟ قال : نعم الثلث قال : ماذا أصنع به ؟ قال : إن شئت تصدقت به على أقربائك ، وإن شئت على المحاويج ، وان شئت جعلته صدقة من بعدك حبساً محرماً فقال : اني اكره ان اجعله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ولكني اتصدق بـه ، ففعل ومات .

فلما مات المنذر ارتد أهل البحرين وملكوا عليهم «الغرور» ، وهو المنذر بن النعمان بن المنذر وقال قائلهم : لو كان محمد نبياً ما مات ، ولم يبق بها بلدة على

الثبات سوى قرية يقال لها جواثي كانت أول قرية أقامت الجمعة [1] ، من أهل الردة كما ثبت ذلك في البخاري عن ابن عباس وقد حاصرهم المرتدون وضيقوا عليهم حتى منعوا من الأقوات وجاعوا جوعاً شديداً حتى فرج الله وقد قال رجل منهم يقال له عبيد الله بن حذف احد بني بكر بن كلاب وقد اشتد عليه الجوع :

ألا أبلغ أبا بكر رسولا
وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قوم كرام
قعود في جواثا محصّرينا [2]
كأن دماءهم في كل فج
شعاع الشمس يغشي الناظرينا
توكلنا على الرحمن انا
قد وجدنا الصبر للمتوكلينا

وقد قام فيهم رجل من أشرافهم وهو الجارود بن المعلى وكان ممن هاجروا إلى رسول الله ﷺ خطيباً وقد جمعهم فقال :

يا معشر عبد القيس اني سائلكم عن امر فأخبروني إن علمتموه ولا تجيبوني إن لم تعلموه فقالوا: سل. قال: أتعلمون أنه كان لله أنبياء قبل محمد ؟ قالوا: نعم قال: تعلمونه أم ترونه؟ قالوا: نعلمه . قال: فما فعلوا ؟ قالوا: ماتوا . قال: فان محمداً ﷺ مات كما ماتوا وإني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فقالوا له . وأنت أفضلنا وسيدنا . وثبتوا على إسلامهم وتركوا بقية الناس فيما هم فيه [3] .

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « ان اول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجد عبد القيس (بجواثي) من البحرين » .
شرح صحيح البخاري للكرماني ج ٦ ص ١٤ - ١٥

(٢) اهلها (محصورين) لكن ضرورة الشعر تجعلها كذلك .

(٣) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٧ - ٣٢٩ .

ونلاحظ هنا ان ذلك الثبات الذي رأيناه في الجارود بن المعلى واصحابه انما يعود إلى امرين أساسيين

أولهما التدين المنتظم و والصلة بالله سبحانه ، ويؤخذ ذلك من معرفتنا لتاريخ قرية (جواثا) بالبحرين فقد عرفنا فيما سبق ان هذه القرية كانت أول قرية أقامت الجمعة منذ فترة مبكرة بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك في صحيح البخاري نفسه ، وهذا يلفت أنظارنا إلى قوة تأثير التربية الدينية ، وقيمة ربط الناس بالله سبحانه عن طريق الفرائض والعبادات .

وثانيهما ضرورة تنمية استعمال العقل الإنساني إلى أبعد وأوسع وأعمق مدى ممكن فقد كان الثبات الذي رأيناه منبعثاً من منطق العقل والحكمة ، والتفكير الهادىء المنتظم الذي جرى على لسان (الجارود) فقد كان آية هداية ، وحجة يقين على ان العقل الإنساني إذا اتيحت له فرصة العمل فلا بد أن يثمر الخير ، ولقد كان رسول الله ﷺ يقول لبعض الذين آمنوا به : لقد علمت بأن عقلك لن يسلمك إلا إلى خير ، ويتمشى هذا المنطق النبوي — كشأنه — مع القرآن حيث يقول عن الكافرين : « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير » لكن هذا الاتجاه السليم قابله اتجاه خاطيء لم يتقيد بمنطق العقل وهداه ، يقول الأستاذ هيكل :

« لم يثن رجوع بني عبد القيس إلى الإسلام سائر أهل البحرين عن ردتهم بل اجتمع الذين اصروا على الردة بزعامة (الحطم بن ضبيعة) فردوا الملك في آل المنذر ، وملكوا عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر وكان يسمى «الغرور» ثم انهم حاولوا أن يصرفوا الجارود والذين معه عن إسلامهم فذهبت محاولتهم سدى عند ذلك خرج (الحطم) حتى نزل (القطيف) و (هجر) واستغوى من كان بهما من الأبناء [1] .

---

(١) الابناء — طبقة تكونت من تزاوج التجار الهنود والفارسيين بأبناء البلاد وكان ولاء هذه الطبقة للفرس .

كما ضم اليه من لم يكن دخل في الإسلام من قبل ، وحاصر الجارود ومن معه في ناحية (جواثي) مؤيداً من فارس وبلاطها ، ولقد ألح عليهم في الحصار حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون . مع هذا لم يرجع عن إسلامه منهم أحد ، وهانت عليهم الحياة في سبيل دينهم الحق [1] .

* * *

وصول العلاء

في هذه الظروف الخطيرة وصل العلاء إلى المنطقة بعد اجتيازه بادية الدهناء والوضع في غاية الحرج والدقة ، فالغالبية الغالبة مرتدة ارتداداً مسلحاً يقوده الحطم بتأييد من الفرس ، والمسلمون قلة قليلة ، وهم محصورون وسط موجهادر من الحماقات التي لم يقيدها فكر او رشد ، وانما تدفعها العواطف الهوج يملأها الجهل والشر ، وهكذا دائماً يصنع التقليد الأعمى بالناس مهما كانوا كثرة وقوة وصدق رسول الله ﷺ الذي ينهى عن التقليد السيء فيقول : « لا يكن احدكم إمعة يقول أنا مع النـــاس . إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا انفسكم إن أحسنوا أن تحسنوا وإن اساءوا أن تتجنبوا إساءتهم » .

وأنهكت شدة الحصار المسلمين ، وكاد الجوع يقتلهم ولا من نصير او معين وهنا يبدو دور العلاء . فما أن وصل للمنطقة حتى أرسل إلى الجارود يشد من عزيمته وعزيمة من معه ، ووقف هو مـن الحطم موقف المتأهب للقتال ، لكنه رأى المرتدين في عدد وعدة يجعلان المواجهة والهجوم عسيرين لذلـــك خندق المسلمون ، وخندق المرتدون ، وجعلوا يتراوحون القتال ثم يرجعون إلى خنادقهم وفي هذه الأثناء استطاع العلاء أن يبعث إلى الجارود بخطة تنظم دوره في المعركة المرتقبة وكانت الخطة تقضي بالتفاف العلاء والجارود ، فاذا جاءت ساعة الصفر كانت ضربة المسلمين للمرتدين مزدوجة وفي وقت واحد . يقول الطبري :

« فأرسل العلاء الى الجارود ورجل آخر أن انضما في عبد القيس حتى تنزلا

---

(١) (للصديق ابو بكر لميكل ص ١٨٥ – ١٨٦) . والكامل ج ٢ ص ١٥٤ .

على الحطم مما يليكما ، وخرج هو فيمن جاء معه وفيمن قدم عليهم حتى ينزل عليه مما يلي هجر »[1] .

* * *

لكن اللحظة المناسبة التي يترقبها العلاء ويعد رجاله لها لم تحن بعد ، فتذرع بالصبر والحكمة والحذر والحيطة ، وأقاموا على ذلك شهراً كاملا لا يدري أيهم ما يكون المصير .

* * *

يقظة العلاء أنقذت المسلمين المحصورين

لم يكن يشغل العلاء طوال هذا الشهر شيء غير الإعداد للمعركة ، فهو يناور ويراقب ويجمع المعلومات ويوالي اصحابه من رفاق السلاح بما يجب ان يكون ، وبقي مرهف الحس والسمع والبصر مشدود الانتباه لكل ما حوله .

وجاءت الفرصة سانحة لينفذ من خلالها العلاء إلى خصمه العنيد فقد سمع المسلمون ضوضاء وجلبة . فقال العلاء: من يأتينا بخبر القوم . فقال عبد الله بن حذف: أنا ، فخرج حتى دنا من خندقهم فأخذوه وكانت امه عجلية — اي تنتمي إلى قبيلة بني عجل — فجعل ينادي : يا أبجراه — وهو رجل من بني عجل كان في جيش الحطم فجاء أبجر بن بجير فعرفه . فقال: ما شأنك ، فقال : علام أقعد وحولي عساكر من عجل وتيم اللات وغيرها فخلصه وقال له : والله اني لأظنك بئس ابن اخت أتيت الليلة اخوالك فقال: دعني من هذا واطعمني فقد متّ جوعاً فقرب له طعاماً فأكل ثم قال: زوّدني واحملني (يقول هذا الرجل غلب عليه السكر) فحمله على بعير وزوده وجوزه — اي سهل له المرور من عساكر الحطمة — فدخل عسكر المسلمين فأخبرهم ان القوم سكارى فخرج المسلمون عليهم ووضعوا السيف

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٥٢٣ .

فيهم كيف شاءوا ، وهرب الكفار فمن بين مترد – أي في الخندق – ومقتول ومأسور ، واستولى المسلمون على العسكر ولم يفلت رجل إلا بما عليه »[1] .

* * *

مصير قائد المرتدين في هذه المعركة

وكان الحطم بن ضبيعة أخو بني قيس بن ثعلبة من سادات القوم ناشئاً فقام دهشاً حين اقتحم المسلمون عليهم فركب جواده فانقطع ركابه فجعل يقول : من يصلح لي ركابي ؟ فجاء رجل من المسلمين في الليل فقال : أنا اصلحها لك ، ارفع رجلك فلما رفعها ضربه بالسيف فقطعها مع قدمه فقال له: اجهز علي فقال : لا أفعل . فوقع صريعاً كلما مر به أحد يسأله أن يقتله فيأبى ، حتى مر قيس بن عاصم فقال له : أنا الحطم فاقتلني فقتله ، فلما وجد رجله مقطوعة ندم على قتله وقال : وا سوأتاه لو اعلم ما به لم احركه ، ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق ، وذهب من فر منهم ، واكثرهم في البحر إلى (دارين) ركبوا اليها السفن ، ثم شرع العلاء بن الحضرمي في قسم الغنيمة ونقل الأثقال وفرغ من ذلك »[2] .

* * *

هذا الانتصار الذي حصل عليه العلاء للمسلمين يدل على يقظة ودراية وحسن استغلال للظروف التي تطرأ على العدو . كما تدل على اهتمام العلاء بأخبار الأعداء وجمع المعلومات عنهم ، وإلا لما استطاع ان يضرب ضربته المفاجئة ، وقد استطاع العلاء بهذا التصرف أن يجعل الحطم وجنوده في حالة المعركة محصورين بين قواته وبين قوات الجارود التي كانت محصورة ثم أدار المعركة في انسب وقت حيث اذهبت الفوضى والسكر ميزة الكثرة في أعدائه ، وعوضت اليقظة وحسن

---

(١) واستولى على جميع اموالهم ، وحواصلهم ، واثقالهم ، فكانت غنيمة عظيمة جسيمة .

(٢) البداية والنهاية جزء ٦ ص ٣٢٨–٣٢٩ .

التعبئة وقوة الإعداد قلة جنوده واصحابه ، فامتلك أسباب النصر والظفر قسراً وعنوة رغم الأحداث ، وهذه قوة الايمان والعمل ، والمؤمن القوي خير واحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

وهكذا لم يجد المرتـــدون المنهزمون امامهم إلا الفرار والهرب أو الموت المحقق ، فاتجهوا إلى جزيرة دارين وهي إحدى جزر الخليج الفارسي في مواجهة البحرين .

تطبيق الاصول العسكرية وابراز القيادات

كان العلاء بن الحضرمي ينظر إلى أعدائه وهم يجرون أذيال الهزيمة والخيبة، فيلجأون إلى بعض السفن حيث تختفي بهم في مياه الخليج في طريقهم إلى جزيرة دارين . وقرر العلاء في نفسه أمراً خطيراً ، وهو تعقب هؤلاء ومهاجمتهم وراء الماء . ولم تكن قرارات العلاء كقائد ممتاز تنساق وراء عاطفة جامحة ، او خيال طموح ، ولذلك نراه يلجأ إلى اسلوب علمي وعقلي في الحرب . فلا بد من احتفاظه بجيشه المهاجم قويا في عدته وعدده ، وفق القواعد العلمية الحربية التي كانت بالفطرة والطبيعة تجري في دم العلاء وعقله وهو في نفس الوقت يريد تأمين ظهره حتى يستطيع تعقب الفارين من اعدائه في طمأنينة وامن من الكمائن والجيوب والمفاجآت غير المحسوبة ولذلك نراه يبادر إلى استغلال الكفاءات القوية المحلية الموجودة اصلا في المنطقة من الذين ثبتوا على إسلامهم وعقيدتهم فيطلب اليهم تعقب الفارين المتجهين للعدو عن طريق البر . ويكون لهذه الكفاءات والقيادات التي أفاد منها العلاء ، وأعطاها فرصة النماء شأن أي شأن فيما بعد . يقول ابن الأثير :

(وقصدت معظم الفلول الفارة الى دارين فركبوا اليها السفن ولحق الباقون ببلاد قومهم فكتب العلاء الى من ثبت على اسلامه من بكر بن وائل منهم عتيبة ابن النهاس والمثنى بن حارثة وغيرهما يأمرهم بالقعود للمنهزمين والمرتدين بكل طريق ففعلوا وجاءت رسلهم الى العلاء بذلك فأمن ان يؤتى من وراء ظهره

فندب حينئذ الناس الى دارين)[1] .

ولا يخفى ما كان من الأثر الكبير على مستقبل الأمة الإسلامية كلها بسبب اعطاء العلاء هذه الفرصة للمثنى بن حارثة فقد برزت مواهب هذا القائد العظيم وكانت خيراً وبركة على الأمـــة الإسلامية فان المثنى هذا يعتبر الفاتح الحقيقي لبلاد الاكاسرة وتمكين الإسلام والمسلمين من هذه الامبراطوريةالضخمة ، وهذا بفضل تشجيع العلاء للمثنى وسماحه له بالانطلاق . ويرى المؤرخون المحققون ان المثنى بن حارثة الشيباني بمواهبه وكفاياته وقدراته القيادية يعتبر من طراز سيدنا خالد بن الوليد ، فمن الفخار للعلاء بن الحضرمي ان تكون الانطلاقـة الأولى[2] لهذا القائد العظيم على يديه وبمعرفته وبتوجيهه وتشجيعه .

جرأة العلاء بمقاييس عصره

استطاع المثنى أن يؤمن ظهر العلاء وجيشه بنجاحه واصحابـه في مطاردة الفارين من المرتدين والقضاء عليهم من ناحية الصحراء فقرر العلاء بن الحضرمي ان يتعقب بنفسه المنهزمين الذين فروا الى المـــاء الى جهة جزيرة (دارين) التي تفصلها مياه الخليج عن البحرين ، وكانت العرب تهاب البحر وتخشاه ، ومن هنا كانت وصايا خلفاء المسلمين للقواد بأن لا يركبوا البحر بجنود المسلمين الا باذن واحتياطات وكم اوصى سيدنا عمر رضي الله عنه قواده بذلك . ويأتي العلاء في هذا الوقت المبكر في خلافة ابي بكر ويقرر مطاردة المنهزمين وراءالماء ،وأدرك العلاء رهبة المسلمين من عبور الخليج إلى أعدائهم ، فاذا به يذكرهم بمعونة الله لهم في صحراء الدهناء حين فقدوا الزاد والماء والرواحل وكادوا يهلكون ، فاذا

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) يقول الدكتور فياض رحمه الله : كان العلاء والمثنى اول من فكر في فتح فارس على اغلب الظن فمن البحرين تقدم المثنى الى العراق بعد مشاورة مع العلاء (التاريخ الاسلامي – عصر الخلفاء ص ٢٣٧) .

وسنشير الى هذا في ترجمة المثنى بعد العلاء .

بمدد من السماء يأتيهم فيرون الماء يملأ الغدير وتعود اليهم الرواحل والابل بعد أن دعوا الله فاستجاب لهم ، وهكذا جعل يشجعهم ويملأ قلوبهم ثقة حتى تحمس المسلمون لركوب البحر اعتماداً على الله الذي نجاهم من الصحراء المهلكة .

يقول ابن الأثير :

« وقصد معظم الفارين من جنود الحطم — إلى دارين ، فركبوا اليها السفن فندب الناس حينئذ الى دارين وقال لهم ، قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر ، فانهضوا الى عدوكم واستعرضوا البحر وارتحل وارتحلوا حتى اقتحم البحر على الخيل والابل والحمير وغير ذلك ، وفيهم الراجل — اي الذي لا يركب دابة بل يعبر البحر سيراً على قدميه — ودعا ودعوا ، وكان من دعائهم يا ارحم الراحمين يا كريم يا حليم يا احد يا صمد يا حي يا محيي الموتى يا حي يا قيوم لا اله الا انت يا ربنا ، فاجتازوا ذلك الخليج يمشون على مثل رملة فوقها مـــاء يغمر اخفاف الابل ، وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن البحر »[1] .

* * *

اما رواية ابن كثير في البداية والنهاية لقصة العبور فانه يقول عن العلاء :

وقال للمسلمين : اذهبوا بنا الى دارين لنغزو من بها من الأعداء فأجابوا الى ذلك سريعاً فسار بهم حتى أتى ساحل البحر ليركبوا في السفن فرأى ان الشقة بعيدة لا يصلون اليهم في السفن حتى يذهب اعداء الله فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول :

يا ارحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا احد يا صمد يا حي يا محيي يا ذا الجلال والاكرام لا اله الا انت يا ربنا وامر الجيش ان يقولوا ذلك ويقتحموا ففعلوا ذلك فاجتاز بهم الخليج باذن الله يمشون على مثل رملة دمثة فوقها ماء يغمر اخفاف الابل ولا يصل الى ركب الخيل ومسيرته للسفن يوم وليلة فقطعه الى الساحل الآخر[2] .

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٩ .

رائد العبور

كان العلاء بن الحضرمي قائداً جسوراً وفدائياً رائداً سبق عصره بأكثر من الف سنة حين قرر عبور الخليج الى عدوه الذي انسحب الى جزيرة دارين .

كيف استطاع العلاء عبور البحر بالجيش العربي الذي تعود على جفاف الصحراء فهو بطبيعته يرهب البحر ويخشاه ؟ لا شيء يغطي الاجابة على هذا التساؤل الا ان نعرف حقيقة الحقائق التي كان يملكها هؤلاء المجاهدون المخلصون وهي الإيمان بالله رب العالمين ، والتجرد من الأهواء والشهوات ، ومحبة الشهادة في سبيل الله والتفاني في نصرة المبدأ ، والذي يطلب الموت يحق تواتيه عزة الحياة . ويبارك الله له فيما بين يديه من وسائل مهما كانت قليلة او محدودة.

ذلك الدرس ينبغي ان يعرفه جنودنا المقاتلون ، حتى يتحسسوا مواقع اقدامهم خلف مواقع اقدام العلاء بن الحضرمي واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتصحبهم الملائكة ، ويمدهم الله بنصره وتأييده .

ويقول الدكتور هيكل في تصوير عبور العلاء وجيشه الخليج ما نصه :

« ودارين جزيرة من جزر الخليج الفارسي تواجه البحرين كان بها أديار خمسة لخمس شعب من النصارى ، وتجري الرواية بأن العلاء لما امر المسلمين بالذهاب اليها لم تكن لديهم سفن يركبون البحر عليها فنهض فيهم فقال : « قد أراكم الله من آياته في البر لتعتبروا بها في البحر فانهضوا الى عدوكم ثم استعرضوا البحر اليهم فان الله قد جمعهم » واجابه قومه : « نفعل ولا نهاب بعد الدهناء والله هولا ما بقينا » وارتحلوا حتى اذا اتوا ساحل البحر اقتحموا على الخيل والبغال والحمير والجمال ودعوا الله فاجتازوا البوغاز على مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر اخفاف الابل افكان ذلك ساعة جزر الخليج الفارسي ؟ ام في الرواية مبالغة وان (الأبناء) الذين انضموا للمسلمين اعاروهم سفنا عبروا البحر عليها » .

وتعليقنا على هذه النصوص التي نقلها الدكتور هيكل من الطبري والكامل ثم علق عليها برأيه هو اننا لسنا بصدد اثبات الخوارق او نفيها او ردها الى

المألوف المعروف من مد البحر وجزره ، وإنما الذي يعنينا من ذلك كله أن العلاء ابن الحضرمي قد عبر البحر لأول مرة في تاريخ المعارك الإسلامية ، وأن هذا العبور كان مذهلا ومثيراً للجنود وللمسلمين عموماً ، وانه بهـذا التصرف البالغ الجرأة بمقاييس عصره يعتبر أول رائد للبحرية العربية والإسلامية . ذلك مـا ينبغي التركيز عليه وكشفه وتحليله . على أننا لا ننفي أبداً رعايـة الله ومعونته للمجاهدين الصادقين .

* * *

وقفة لا بد منها مع فقه الصحابة في مثل هذه المواقف

إن حدوث أمور خارقة للعادة أو مخالفة للمألوف كان أمراً شبه طبيعي في حياة الصحابة وكفاحهم ، فكثيراً ما حدث في غزواتهم مع النبي ﷺ مثل ذلك ، وأشار القرآن الكريم إلى جملة مواقف كالإمداد بالملائكة والبشارة والأمنة بالنوم وإنزال الماء وتثبيت القلوب والأقدام في غزوة بدر قال تعالى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فـاتقوا الله لعلـكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف مـن الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

« آل عمران »

وقال تعالى : (إذ يُغشّيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء مـاء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) .

« الأنفال »

وموقف المسلمين في غزوة الأحزاب وصرف العدو عنهم ثم تمكين المسلمين من بني قريظة . قال تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله

المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا »[1] .

* * *

والمواقف أكثر من أن تحصى . منها ما نزل فيه القرآن ومنها ما لم ينزل فيه القرآن ولكن وعته كتب التاريخ والسنة والذي يستعرض السيرة النبوية يلمس أن الحياة الشفافة الصافية التي عاشها الصحابة الكرام في صحبة نبيهم ﷺ كانت لاتخلو من المدد الخارق لما ألفه الناس وتعودوه .

لكن الظاهرة الجديرة بالتأمل والدراسة والنظر أن الرسول ﷺ لم تصرفه هذه المعاني قط عن الأخذ الدقيق والكامل بالأسباب المعتادة التي تتوقف عليها نتائجها ، وعوّد أصحابه على الالتزام بهذا النهج في حزم لا تساهل فيه . ورباهم على سلامة الفقه والتطبيق فأي أمر خارق للعادة هو في حقيقته من صنع الله ولا دخل للبشر أياً كانوا في حدوثه . ولذلك لم يسمح الرسول ﷺ لأحد أن يخلط بين الأمور المعتادة التي تدخل في نطاق قدرة البشر وبين غيرها من الخوارق . ونتيجة لهذا الفهم وذلك الالتزام لم تحدث أي ظاهرة من ظواهر التواكل في المجتمع الإسلامي في الصدر الأول على كثرة المعجزات والخوارق ، بل كان العمل والإعداد والكد والكفاح هو الشعار الحقيقي لكل مؤمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ، وأي خروج على هذا النهج القويم كان يعد انحرافاً لا يترك فاعله دون توجيه وتصحيح . دخل رسول الله ﷺ المسجد فوجد رجلا يتفرغ للعبادة فسأل من يكفيه طعامه وشرابه ؟ فقال الصحابة كلنا يارسول الله ، فقال النبي كلكم أعبد منه .

ونخلص مما سبق بأن رعاية الله لعباده المجاهدين العاملين المخلصين لا حدود لها إذا هم أفرغوا كل ما في طاقتهم واستطاعتهم من جهد وقدرة . فالكون ملك

---

(١) الاحزاب ٢٥ – ٢٧

الله ونحن عباده ، وهو سبحانه واسع الرحمة يكمل للمخلصين الجادّين مايعجزون عنه ، ويتمم لهم بفضله ما يخرج عن محال قدرتهم إذا أحسنوا أداء ما يملكونه في نطاق استطاعتهم .

هذا درس ينبغي أن يكون واضحاً في نفوسنا وعقولنا من سلوك الرسول والصحابة أنفسهم عليهم جميعاً رضوان الله ، وبعد هذه الوقفة القصيرة التي دعا اليها عبور العلاء بن الحضرمي الخليج إلى (دارين) نعود إلى نتيجة هذه المعركة الرائدة .

نتيجة المعركة في (دارين)

يقول ابن الأثير بعد أن وصف رحلة عبور المسلمين للماء ووصولهم إلى دارين :

«فالتقوا وقاتلوا قتالا شديداً ، فظفر المسلمون ، وانهزم أعداؤهم وأكثر المسلمون القتل فيهم ، فما تركوا فيها مخبراً ، فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا . وكتب العلاء بالنصر إلى أبي بكر وعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم »[1] .

ويروي ابن كثير نتيجة المعركة في دارين بأسلوب مملوء بالعاطفة وان لم يخل من لغة الارقام في النتائج فيقول : قاتل عدوه وقهرهم واحتاز غنائمهم ثم رحل فقطعه إلى الجانب الآخر فعاد إلى موضعه الأول وذلك كلة في يوم ولم يترك من العدو مخبراً واستاق الذراري والأنعام والأموال ، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها ثم قسم غنائم المسلمين فيهم فأصاب الفارس ألفين والراجل ألفاً مع كثرة الجيش وكتب إلى الصدّيق فأعلمه بذلك ، فبعث الصدّيق يشكره على ما صنع وقد قال رجل من المسلمين في مرورهم في البحر وهو عفيف بن المنذر :

ألم تر ان الله ذلل بحره
وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٥٥ .

دعونا إلى شق البحار فجاءنا
بأعجب من فلق البحار الأوائل [1]

وقد ذكر سيف بن عمر التميمي :

أنه كان مع المسلمين في هذه المواقف والمشاهد التي رأوها من أمر العلاءوما أجرى الله على يديه من الكرامات رجل من اهل هجر راهب فأسلم حينئذ .

وقصة إسلام هذا الراهب من الطرائف التي رواها ابن الأثير وغيره ، فقد جاء في كتابه الكامل :

« كان مع المسلمين راهب من اهل هجر فأسلم فقيل له ما حملك على الإسلام . قال :

« ثلاثة أشياء خشيت ان يمسخني الله بعدها : فيض في الرمال ، وتمهيد اثباج البحر — اي وسطه — ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحراً » .

اللهم أنت الرحمن الرحيم لا إله غيرك ، والبديع فليس قبلك شيء ، والدائم غير الغافل ، الحي الذي لا يموت ، وخالق ما يرى وما لا يرى ، وكل يوم أنت في شأن علمت كل شيء بغير تعلم .

فعلمت ان القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق فكان اصحاب النبي ﷺ يسمعون هذا منه بعد » [2] .

والحق ان القدوة العملية الصالحة اقوى تأثيراً فيالنفوس الناس ، من الدعاية بمجرد الكلام النظري الذي لا يصدقه العمل ، ولقد كانت الأعمال عند أسلافنا هي التي تدعو لمبادئهم ، وتقنع الناس بها وترغبهم في اعتناقها . فالقوة والنجاح والصدق من اهم عوامل اكتساب الثقة والاحترام ، من البعيد والقريب ، والعدو والحبيب .

وهذا الراهب الذي اقتنع بالإسلام صورة للنفس الإنسانية في كل مكانوزمان فلولا النجاح والتوفيق الذي كان حليف المسلمين لما تأثر هذا الراهب مثل ذلك

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٢٧ .

(٢) الكامل ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

التأثر الذي اصبح تاريخاً يروى .

ولذلك فانه يطلب منا – على جميع مستويات المسؤولية – ان نكون عمليين في إكساب أنفسنا وأبنائنا روح القوة والشجاعة والتضحية . وموقف عملي واحد أجدى نفعاً في إذكاء روح الحماس والبذل والتضحية في النفوس ، من عشرات الكلمات المنمقة العارية عن التطبيق .

إن من أشد الاساءات إلى المباديء والقيم أن تنفصل الشعارات عن السلوك العملي فتكون بعيدة عن التأثير والتصديق .

نجاح العلاء في السيطرة على المنطقة

يقول الدكتور هيكل :

« وعاد العلاء بن الحضرمي إلى البحرين وعاد الناس معه إلا من احب المقام ، وأقام بالبحرين وقد قضى على الردة فيها . من ثم لم يكن يخشى شيئاً إلا غارة قبائل البادية التي ألفت الغزو للسلب . ودسائس الفرس الذين تقلص نفوذهم في جنوب شبه الجزيرة . على أنه كان مطمئناً من هذه الناحية إذ انضم اليه قبل ذهابه إلى دارين من قبائل البحرين ومن الأبناء من كفوه مؤونة ما يخشى ، وكان عتيبة بن النهاس والمثنى بن حارثة الشيباني على رأس المنضمين اليه وقد قعدوا بكل طريق للمنهزمين والذين يعيثون في الأرض فساداً . بل لقد تابع المثنى السير على شاطيء الخليج الفارسي يقاوم دسائس الفرس ويقضي على انصارهم من القبائل ومن الأبناء حتى بلغ مصب الفرات ، فكان لبلوغه هذا المصب ، ولاتصاله بأرض العراق – ولدعوته إلى الإسلام هناك أثر لعلنا لا نبالغ اذا قلنا انه كان المقدمة لفتح العراق [1] .

لقد كان للنجاح الباهر الذي حققه العلاء بن الحضرمي في جزيرة دارين بعد عبور الخليج اليها ، وسيطرته على البحرين اثر شجعه على التفكير في غزوة بحرية اخرى جريئة تتجه الى بلاد فارس من الخليج ، ولكن التوفيق لم يكن حليفه

---

(١) الصديق ابو بكر لهيكل ص ١٨٩ ، كما سنذكره فيما بعد .

في هذه المرة كما حالفه في المرة الماضية .

ولذلك تغلب على المؤرخين نغمة من اللوم حين يذكرون موقف العلاء بن الحضرمي من فتح الأهواز والأبلة الذي كان من مضاعفات الغزوة البحرية الجديدة التي تورط فيها العلاء .

وقد افرد لهذه الغزوة ابن كثير عنواناً في كتابه (البداية والنهاية) جاء فيه : —

غزو بلاد فارس من ناحية البحرين

فيما حكاه ابن جرير عن سيف في هذه السنة — يعني سنة ١٧ هـ — يقول :

وذلك ان العلاء بن الحضرمي كان على البحرين في أيام الصدّيق فلما كان عمر عزله عنها وولاها قدامة بن مظعون ثم أعاد العلاء بن الحضرمي اليها وكان العلاء بن الحضرمي يباري سعد بن أبي وقاص فلما افتتح سعد القادسية وأزاح كسرى عن داره (وأخذ حدود ما يلي السواد واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء بن الحضرمي من ناحية البحرين فأحب العلاء أن يفعل فعلا في فارس نظير ما فعله سعد فيهم فندب الناس إلى حربهم فاستجاب له أهل بلاده فجزأهم أجزاء) .

فعلى فرقة الجارود بن المعلى وعلى الأخرى السوار بن همام وعلى الأخرى خليد بن المنذر بن ساوى وخليد هو أمير الجماعة فحملهم في البحر إلى فارس وذلك بغير إذن عمر له في ذلك — وكان عمر يكره ذلك لأن رسول الله ﷺ وأبا بكر ما أغزيا فيه المسلمين — فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس فخرجوا من عند اصطخر فحالت فارس بينهم وبين سفنهم فقام في الناس خليد بن المنذر فقال :

أيها الناس إنما أراد هؤلاء القوم بصنيعهم هذا محاربتكم وأنتم جئتم لمحاربتهم فاستعينوا بالله وقاتلوهم فانما الأرض والسفن لمن غلب ، واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة إلا على الخاشعين ، فأجابوه إلى ذلك فصلوا الظهر ، ثم تاهدوهم فاقتتلوا ، قتالا شديداً ، في مكان من الأرض يدعى (طاوس) ثم أمر خليد المسلمين ، فترجلوا وقاتلوا ، فصبروا ، ثم ظفروا ، فقتلوا من فارس مقتلة لم

يقتلوا قبلها مثلها ثم خرجوا يريدون البصرة فغرقت بهم سفنهم ، ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا، ووجدوا شهرك في أهل اصطخر قد أخذوا على المسلمين بالطرق ، فعسكروا ، وامتنعوا من العدو .

ولما بلغ عمر ما صنع العلاء بن الحضرمي اشتد غضبه عليه ، وبعث اليه فعزله وتوعده وأمره بأثقل الأشياء عليه ، وأبغض الوجوه اليه ، فقال : إلحق بسعد بن أبي وقاص (فخرج العلاء إلى سعد بن أبي وقاص) مضافاً اليه وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان :

ان العلاء بن الحضرمي خرج بجيش فأقطعهم أهل فارس وعصاني ، وأظنه لم يرد الله بذلك ، فخشيت عليهم أن لا يُنصروا وأن يغلبوا وينشبوا ، فانـدب اليهم الناس واضممهم اليك من قبل أن يجتاحوا . فندب عتبة المسلمين، وأخبرهم بكتاب عمر اليه في ذلك ، فانتدب جماعة من الأمراء الأبطال ، منهم هاشم بن أبي وقاص [1] ، وعاصم بن عمرو ، وعرفجة بن هرثمة ، وحذيفة بن محصن ، والأحنف بن قيس ، وغيرهم في اثني عشر ألفاً ، وعلى الجميع أبو سبرة بن أبي رهم ، فخرجوا على البغال يجنبون الخيل سريعاً ، فساروا على الساحل لا يلقون أحداً ، حتى انتهوا إلى موضع الوقعة التي كانت بين المسلمين من أصحاب العلاء، وبين أهل فارس ، بالمكان المسمى (بطاوس) وإذا خليد بن المنذر ، ومن معه من المسلمين محصورون قد أحاط بهم العدو من كل جانب ، وقد تداعت عليهم تلك الأمم من كل وجه ، وقد تكاملت أمداد المشركين ، ولم يبق إلا القتال ، فقدم المسلمون اليهم أحوج ما هم فيه اليهم ، فالتقوا مع المشركين رأساً ، فكسر أبو سبرة المشركين كسرة عظيمة ، وقتل منهم مقتلة عظيمة جداً ، وأخذ منهم أموالا جزيلة باهرة ، واستنقذ خليداً ومن معه من المسلمين من أيديهم ، وأعز الله به الإسلام وأهله ، ودفع الشرك وذله ، ولله الحمد والمنة ، ثم عادوا إلى عتبة ابن غزوان وإلى البصرة [2] .

---

(١) ابن اخي الصحابي الجليل سعد بن ابي وقاص قائد معركة القادسية .

(٢) ج ٧ البداية والنهاية ص ٨٣ ، ٨٤

لقد ذكرنا أن المؤرخين في كتابهم عن حملة العلاء البحرية الأخيرة ، تغلب عليهم نغمة من اللوم يوجهونها للعلاء بن الحضرمي . وقد بدأنا برواية ابن كثير لأنها أهدأ من غيرها . غير ان سياقها يقطع بلا جدال ، بأن فتح الأهواز والأبلة آنذاك ، كان أثراً من آثار تصرف العلاء بن الحضرمي الذي أدى بتداعي الأحداث إلى إلى تدخل الخليفة عمر في الأمر ، ثم تكليف عتبة بن غزوان بنجدة العلاء ومن معه بعد صموده ورجاله للحصار العنيف بشجاعة وإيمان وقوة ، ثم مساهمتهم مساهمة فعالة في المعارك التي دارت (بطاوس) ، ثم الاستيلاء على الأهواز والأبلة .

لكن الأمر الذي نعجب له ، ان تتخذ هذه الحادثة في حياة العلاء وتاريخه ، وسيلة للهجوم عليه والغض من دوره التاريخي العظيم .

وقبل أن نناقش ما كتب عن هذه الحملة البحرية ، نعرض بعض النماذج لآراء المؤرخين في عصرنا الحديث عن هذه الواقعة !

يقول الشيخ الخضري :

كان العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين لعمر ، وكان العلاء يباري سعد ابن ابي وقاص ، فلما كانت حروب الردة طار ذكر العلاء وظفر بالفضل ، فلما ظفر سعد بالقادسية ، وأزاح الأكاسرة ، واخذ حدود ما يلي السواد ، سر العلاء أن يصنع شيئاً في الأعاجم ، يكون له به من الشهرة والسيادة والسعد ، فندب أهل البحرين إلى فارس ، فتسرعوا إلى ذلك ، وفرقهم اجناداً وحملهم في البحر بغير إذن عمر ، وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوب البحر ، ولما عبرت تلك الجنود خرجوا في اصطخر وبازائهم اهل فارس فلما رأوهم حالوا بينهم وبين سفنهم فلما رأى المسلمون ذلك اشتدت حميتهم وقاتلوا اهل فارس مقاتلة المستميت فظفروا ثم ساروا يريدون البصرة لأنه قد حيل بينهم وبين الرجوع إلى البحرين فوجدوا (شهرك القائد الفارسي) قد اخذ عليهم الطرق فعسكروا في موطنهم وامتنعوا .

وبلغ خبر ذلك عمر فاشتد غضبه على العلاء وأرسل اليه يعزله وأمره بأثقل

الأشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد عليه ... الخ [1] .

وبنفس المنهج يعالج الأستاذ هيكل هذه المسألة في كتابه (الفاروق عمر) فينسب إلى عتبة بن غزوان أمر هذه الفتوح، مرجحاً الروايات التي تجاهلت دور العلاء ، مع انه يذكر في كتابه تعليقاً على ذلك : ان ابن الأثير في كتابه الكامل يرجح ، ان العلاء بن الحضرمي ، فكر ايام عمر في غزو دلتا النهرين ، كما فكر المثنى في غزوها ايام ابي بكر ، لكنه لم يصنع صنيعه ، فلم يشاطيء الخليج الفارسي اليها بما معه من الرجال ، بل حملهم في السفن من البحرين إلى فارس ، عابراً هذا الخليج ، فخرجوا إلى اصطخر ، فلقيهم الفرس فالتفوا حولهم ، وحالوا بينهم وبين سفنهم ولم يكن عمر اذن للعلاء فيما صنع . لأنه كان يخشى الغزو في البحر ويأباه فلما عرف ان العلاء احيط به مع جرأته ، واقدامه ، واستبسال جنده ، وظفر بالفرس في غير موقع ، ارسل إلى عتبة بن غزوان ان يسير اليه في جند كثيف لينجده قبل ان يهلك هو ورجاله ، وسار عتبة في اثني عشر ألفاً ، ساحل بهم ، وقاتل من لقيهم من الفرس ، حتى ادرك رجال العلاء ، وفتح الأبلة والأهواز كلها معهم [2] .

ويبدو من سياق كلام الاستاذ هيكل انه جعل من رواية ابن الأثير معارضاً او مقابلا للروايات التي تجاهلت دور العلاء بن الحضرمي في فتح (الأبلة) لأنه كتب رواية ابن الأثير في هامش الكتاب ، وقدم لها بعبارة توحي بالتشكيك في هذا النص حيث قال :

« تجري في فتح الأبلة على عهد عمر رواية اخرى يرجحها ابن الأثير [3] » ثم يورد النص كما أثبتناه .

وفي ظننا ان الأستاذ هيكل حين تحدث عن صلة العلاء بن الحضرمي بفتح

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية ج ١ .

(٢) الفاروق عمر للاستاذ هيكل ج ١ ص ٢١٤ في الهامش .

(٣) الفاروق عمر للاستاذ هيكل ج ٢ ص ٤ .

الأبلة سيطر عليه الجو الذي ذهب اليه المؤرخون حول العلاء الذي عبر الخليج بالجيش بدون إذن عمر) .

إلا ان الأستاذ هيكل يقرر في اكثر من موقع ان الأماكن الفارسية التي كان يسيطر عليها العرب ، كثيراً ما يعود الفرس إلى استردادها ، ثم يستردها المسلمون مرة اخرى .

فمثلا جاء في كتابه عن الأهواز نفسها في عصر متأخر عن العلاء وعتبة « ان أبا موسى جمع قواته ودفعها إلى مدينة الأهواز ففتحها » ومعنى هذه العبارة بعد فتح القائدين العظيمين لها ان الفرس استردوها ، وان ابا موسى استعادها وذكر الاستاذ هيكل وصفاً لاجتياز المسلمين لتخوم خوزستان وسيرهم في ارضها ثم حصار الأهواز وفتحها ، وتحدث عن نقض الهرمزان لعهد المسلمين وفراره »[1] . وقال في موضع آخر : « وكيف لأمير المؤمنين — يقصد عمر بن الخطاب — ان يطمئن إلى استقرار جنده ، وقد يرجع الفرس غداً لثأرهم وقد يثيرون العراك كما أثاروه من قبل »[2] .

والأبلة نفسها من هذه الاماكن التي تعرضت لهذه الظاهرة اكثر من مرة كما تعرضت الاهواز وغيرها ، وقد تحدث عنها الاستاذ هيكل حديثاً صريحاً وواضحاً فقال :

« فأكثر الروايات على ان المسلمين فتحوا الأبلة في عهد ابي بكر اول ماذهب خالد بن الوليد إلى العراق ، وان الفرس استردوها بعد ذلك فبقيت في سلطانهم حتى فتحها عتبة بن غزوان في عهد عمر بن الخطاب .

وتوفي عتبة وولى عمر المغيرة بن شعبة على البصرة مكانه . وكان عتبة قد شخص إلى المدينة قبيل وفاته ، فحدّثت اهل الأهواز انفسهم بالثورة على سلطان المسلمين في غيابه فخرج المغيرة لغزوهم حتى يؤمن التخوم بينه وبينهم .

---

(١) الفاروق عمر للاستاذ هيكل ج ٢ ص ٤ .

(٢) الفاروق عمر للاستاذ هيكل ج ١ ص ٢٢٢ .

ولم يجد مشقة في التغلب عليهم . لكن ما يعرفه من سياسة عمر جعله لا يتعقبهم داخل بلادهم ، بل يكتفي بقهرهم ومصالحتهم على مال يدفعونه . ثم انهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى نكثوا عهدهم ، فأحـــلوا المسلمين من صلحهم وأباحوهم ارضهم [1] .

بل انه قال في كتابه الفاروق عن فتح الأبلة وفي نفس الوقعـــة التي تحفظ بشأن صلة العلاء بها :

« اذعن جنوب العراق قبل ان يذعن شماله وشرقه . وذلك بأن اهله رأوا بأس المسلمين حين انتقض العراق منذ غزاهم خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة في عهد ابي بكر . وقد انتقض هذا الجنوب على سلطان المسلمين حـين انتقض العراق كله على هذا السلطان فلما وجه عمر سعد ابن أبي وقاص إلى القادسية وجه عتبة بن غزوان لغزو الجنوب ، فسار ومعه عرفجة بن هرثمة البارقي إلى الأبلة ، على مقربة من موقع البصرة اليوم ، فاستردها من الفرس بعد قتال ظل سجالا أسابيع عدة » [2] .

ان سياقنا لهذه النصوص يعني شيئاً هاماً بالنسبة لدور العلاء بن الحضرمي في فتح الابلة .

وعلى أية حال فإن الامر الذي لا مبرر له في نظرنا هو تجاهل العلاء كلية في فتح الابلة والاهواز لمجرد عدم استئذانه من عمر رضي الله عنه ، خصوصاً لمـا للأبلة والاهواز من أهمية لا ينبغي أن يغمط العلاء حقه ودوره في فتح هـــذين الموقعين الهامين .

أهمية الابلة

يقول الأستاذ هيكل :

« وكانت الأبلة يومئذ مرفأ عظيما ترسو به السفن القادمة من الصين والهند

---

(١) الفاروق عمر جـ ٢ صـ ٢.

(٢) الفاروق عمر جـ ١ صـ ٢١٣

والذاهبة اليها وكان به من الهنود المشتغلين بالتجارة عدد كبير » .

ثم يتحدث عن وصف ما غنمه المسلمون وكثرته ورأي الخليفة فيه حين رآه ، وخوفه على المسلمين من الافتتان بها ولذلك كله دلالته على اهمية الابلة وقيمتها ،فيقول: وحمل اهل الابلة ما خف من متاعهم وخرجوا منها حين انهزم المدافعون عنها ، ودخلها المسلمون فغنموا ما فيها واقتسموه ، ثم عبر عتبة النهر في اثر الجيش المنهزم وتعقبه واستولى على دست ميسان واخذ مرزبانها اسيراً وبعث بمنطقته إلى المدينة . وعرف عمر رضي الله عنه ممن حمل المنطقة اليه ان المسلمين بالعراق شغفوا بأنعم الدنيا حباً . فخشي مغبة ذلك عليهم ، ودعا اليه عتبة يسأله عما اصابهم . واستخلف عتبة مجاشع بن مسعود على الجيش والمغيرة بن شعبة على الصلاة .

اهمية الاهواز

اما اهمية الأهواز ، وعلاقة اهلها بالمسلمين فيقول عنها :

« والأهواز تقع إلى الجنوب الشرقي من العراق العربي وتتصل به ، ويجري فيها من فروع دجلة نهير دجيل ونهير كارون ، ولا يفصلها عن العراق العربي إلا جبل فارس الرفيع الذرى ، وإن فصلت بينهما في بعض الاماكن مرتفعات يتعذر اجتيازها إلا من مسالك مألوفة لأهل تلك الارجاء . وكان موقع الاهواز على مقربة من الابلة والبصرة ، سببا في اشتباك اهلها بالعرب قبل غيرهم من اهل فارس » .

ويضيف عن الظروف التي جعلت اهل الاهواز كثيري المناوأة للمسلمين فيقول :

« لما امر عمر سعداً ألا يتعقبهم وان يتولى تنظيم العراق وإصلاحه ، خيل إلى الفرس ان العرب امسكوا عن تعقبهم خوفا منهم ، فأطمعهم ذلك فيهم واغراهم بمناوشتهم. وكان اهل الاهواز اسبق من غيرهم إلى المناوشة ، فكانوا لذلك اول من اصطدم بالمسلمين ، فدارت الدائرة عليهم ، فكانت هزيمتهم طليعة

ما تلاها من هزائم الفرس واندحارهم [1] .

* * *

وبمعرفتنا لأهمية الابلة والاهواز ، فانه لا يجوز ان يحجبنا عن إنصاف العلاء باثبات جهده وكفاحه حول هاتين المنطقتين الهامتين الخطأ الذي وقع منه اجتهاداً ان الاستئذان من الخليفة واجب ومساهمته في فتح الابلة والاهواز شيء آخر والنّصفة' والتجرد يقضيان بإعطائه حقه .

ومع هذه النصوص الحاسمة التي تشير الى دور العلاء ، ورغم هذه الشهادة الصريحة للعلاء من ابن الاثير فإن الاستاذ هيكل لم يركز على دور العلاء في هذه الفتوح ، بل مضى فوقها سريعاً دون كبير الالتفات ، ولعل الذي شغله عنها ، انه لم يكن يؤرخ للعلاء ، في كتابه عن الصديق ابي بكر ، لكن الذي نلاحظه انه تأثر بابن الاثير ، وبغيره في رمي العلاء بما ليس فيه ، كحب الشهرة ، والرغبة في الظهور ومنافسته الحادة للصحابي العظيم ، سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ذلك أننا إذا ذهبنا لنصوص ابن الاثير نفسه وعباراته التي نقل عنها الاستاذ هيكل ، وتأثر بها ، لوجدناها كذلك لا تخلو من ملام ، فهو يقول عن عمر : كان عمر يقول :

« وددت أن بيننا وبين فارس جبلا من نار ، لا نصل اليهم منه ولا يصلون الينا — أي انه كان يرى الاكتفاء بالعراق العربي . فأراد العلاء ان يصنع في الفرس شيئاً ولم ينظر في الطاعة والمعصية ، وقد كان عمر نهاه عن الغزو في البحر ، ونهى غيره أيضاً ، اتباعاً لرسول الله ﷺ ، وأبي بكر وخوف الغرور فندب العلاء الناس إلى فارس فأجابوه ، وفرقهم أجناداً : على أحدها الجارود ابن المعلى ، وعلى الآخر سوار بن همام ، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جميع الناس ، وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر .. » [2] .

---

(١) الفاروق عمر ج ٢ ص ٢ .

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٢٧

ويذكر ابن الاثير القصة الى آخرها كما لخصها الدكتور هيكل .

نموذج آخر

وللدكتور فياض تصوير دقيق لغزو فارس من البحرين ودور العلاء فيه حيث يقول :

« كان العلاء والمثنى بن حارثة أول من فكر في فتح فارس على أغلب الظن ، فمن البحرين تقدم المثنى إلى العراق بعد مشاورة مع العلاء [1] ولقد رأى العلاء أن سعد بن أبي وقاص ، قد سجل لنفسه مجداً خالداً بمعركة القادسية ، كما سجل عتبة بن غزوان لنفسه مجداً بفتح الأبلة وشط العرب ، على حساب الفرس، ورأى نفسه لم يذهب بشيء من أمجاد فتح فارس ، فعزم على غزو فارس من جهته — أي من البحرين — بعد عبور الخليج الفارسي ، فجهز حملة قوية ، عبرت خليج فارس على سفن أعدها من غير علم الخليفة ودون استئذانه وتقدم نحو مدينة إصطخر ولم يلق مقاومة لأن الفرس استدرجوه إلى الداخل بعيداً عن الشاطيء، ثم التفوا من حوله وقطعوا عليه خط الرجعة، وحالوا بينه وبين السفن ثم صمدوا له بقوات تفوق قواته أضعافاً مضاعفة ... فلم يجد العلاء بداً من السير بفرقته براً إلى البحرين ولكنه وجد جيشاً فارسياً آخر قد سد عليه الطريق ، فعسكر بجيشه في مكانه، وحصن موقعه ينتظر الفرج ، وبلغت انباء انحصار المسلمين مع العلاء قرب إصطخر إلى الخليفة ، فغضب غضباً شديداً على العلاء لإقدامه على أمر خطير دون استئذانه ، ولو انه نجح لما عذر في إغفاله لاستشارة أمير المؤمنين ، فكيف به وقد جر بلاء شديداً على المسلمين [2] .

---

(١) هذه المقدمة في كلام الدكتور فياض لا تبرر ما ذكره بعدها من دوافع للعلاء ، فقد كان تفكير العلاء في أمر الغزو لبلاد فارس مع المثنى سابقاً على وصول سعد اساساً فضلا عن منافسته .

ومعنى ذلك ان غزو العلاء للفرس كان حلما قديماً يترصد له فرصة التحقيق .

(٢) ١ ، ٢ التاريخ الاسلامي عصر الخلفاء للدكتور فياض ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

مناقشة لا بد منها

لا يسعنا إلا أن نعترف بخطورة التصرف الذي تصرفه العلاء ، من حيث عدم استئذانه لأمير المؤمنين عمر ، ولكن الحملة الشديدة على العلاء ، بسبب عبوره البحر بالمسلمين – وتعريضهم للخطر ، لا تستدعي أن يصل الأمر بها إلى هذا الحد ، على انه ما ينبغي أن ننظر إلى هذه الحملة منفصلة عن تاريخ العلاء ، ذلك أنه مما يبرر تصرفه هذا بعض الشيء ، أن نتذكر حملة العلاء البحرية الناجحة التي عبر بجيشه فيها إلى (دارين) ، حين طارد الحطم بعد أن فك الحصار عن (الجارود) وفرّ جيش الحطم أمامه وتحصن (بدارين) فللعلاء تجربة ناجحة موفقه مع البحر ، وقد غلب على تفكيره أنه سيحرز نصراً إسلامياً يقدمه هدية مفاجئة إلى المسلمين وخليفتهم بحركة سريعة ، ومع أنه أحيط به فقد امتنع واستعصم حتى وافاه مدد عتبة بن غزوان .

وشيء آخر يحسن أن يكون في أذهاننا ، لندرك أبعاد تصرف العلاء الذي كان موضعاً للملام الشديد ، ذلك هو ان العلاء عاش فترة في البحرين من عهد النبي ﷺ ، ثم فترة اخرى في عهد أبي بكر رضي الله عنه التي كانت بدايتها حملته البحرية على دارين ، وعرف ركوب البحر وتجرّأ عليه وتعايش فترة طويلة مع من يعتبرون ركوب البحر جزءاً من حياتهم فاختلفت نظرته للغزو بطريق البحر عن نظرة الذين كانوا يعيشون في منطقة بعيدة عن البحار .

ويبقى أن نشير إلى أنه مع اختلاف نظرة العلاء إلى ركوب البحر عن نظرة غيره ، فان الذين شاركوا العلاء في هذه الخطوة الخطيرة ، كانوا من أبناء المنطقة الخلص ، فعلى فرقة من الجيش الجارود بن المعلى ، وهو ذلك الرجل العاقل صاحب الموقف المعروض في قرية (جواثي) الذي ثبّت قومه على الحق وردهم إلى صوابهم ورشدهم ، فهو من أخطر زعماء المنطقة في البحرين ، كذلك أعطى العلاء الإمارة العامة في هذه الحملة (لخليد) وهو ابن المنذر بن ساوى الذي دخل الإسلام إلى المنطقة كلها عن طريقه . وعلى هذا المنوال كان يتكون جيش العلاء الفاتح من

أبناء المنطقة لحما ودماً يعرفون الاسلوب الذي يتعاملون به مع البحر ومع القرس وكانوا من خيرة قومهم عقلا وعقيدة ، ومعنى ذلك كله ، أن العـــلاء لم يكن يتصرف وحده ، بل كان يشركه في مسؤولية الحملة هؤلاء القواد المتخصصون في فهم المنطقة وإدراك ظروفها ، وكانوا في أعلى درجات الاقتناع بها .

كل هذه الملابسات ينبغي أن تكون في حسبان المؤرخ وهو يقـيّم شخصية عظيمة ، كالعلاء ، فكثير من عظماء التاريخ يفتقدون مثل هذه الميزة التي توفرت في شخصية العلاء بن الحضرمي ، ونعني بها ميزة بناء الرجال ، فغالباً لا يتحمل الأفذاذ من القواد والابطال أحداً من الناس يرفع رأسه إلى جواره فاذا تعرضوا إلى نهاية مادية او ادبية بموت او هزيمة انتهى امرهم .

لكن الذي ينظر إلى تاريخ العلاء وإلى اسلوب عمله مع من حوله من الرجال يرى نوعـــاً آخر ، فهو رضي الله عنه ينمّي الكفاءات ويبني القيادات ويصنع الرجال من حوله ويملأهم بالثقة والانطلاق ، ونظرة إلى الجارود بن المعلى ، أو إلى المثنى بن حارثة أو إلى خليد بن المنـــذر بن ساوى أو إلى عتيبة بن النهاس ، وأمثالهم من القواد المشاهير الذين كان لهم شرف الخدمة للدعوة مع العـلاء بن الحضرمي فاقتنعوا بسياسته واحبوا شخصيته واندفعوا في تنفيذ تعاليمه تريثاً ، إن الطريق كان امامه واضحاً ومشرقاً وانه لأمر يدعو إلى إكبار العلاء واحترامه ، أن يخلط نفسه بالذين خدموا الدعوة وعاشوا معه هذه الفترة الطويلة ، منذ ولاه سيدنا رسول الله ﷺ ، حتى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ونثبت هنا رسالة هامة من الخليفة عمر بن الخطاب لما فيها مـــن توجيهات سديدة ولارتباطها بدور العلاء الأصيل في هذه المنطقة .

كتاب عمر الى عتبة

روى علي بن محمد المدائني ان عمر كتب إلى عقبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة : يا عتبة اني استعملتك على ارض هي حومة من حومة العدو وأرجو ان يكفيك الله ما حولها وان يعينك عليها وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمي

عدك بعرفجة بن هرثمة فاذا قدم عليـــك فاستشره وقربه وادع إلى الله ، فمن اجابك فاقبل منه ومن ابى فالجزية عن صغار وذلة وإلا فالسيف في غير هوادة. واتق الله فيما وليت ، وإياك ان تنازعك نفسك إلى كبر فتفسد عليك آخرتك ، وقد صحبت رسول الله ﷺ فعززت بعد الذلة ، وقويت بعد الضعف ، حتى صرت أميراً مسلطاً وملكاً مطاعاً ، تقول فيسمع منك ، وتأمر فيطاع امرك ، فيا لها نعمة إذا لم ترق فوق قدرك وتبطر على مـــن دونك احتفظ من النعم احتفاظك مـــن المعصية وهي اخوفها عندي عليك ، ان يستدرجك ويخدعك فتسقط سقطة فتصير بها إلى جهنم . اعيذك بالله ونفسي من ذلك . ان الناس اسرعوا إلى الله حتى رفعت لهم الدنيا فأرادوها فأرد الله ، ولا ترو الدنيا واتق مصارع الظالمين [1] .

ان الجو العام لهذا النص يعني ان العلاء كان اسبق القواد الإسلاميين مـــن صحابة الرسول وجوداً في هذه المنطقـــة ، وكان لامتداد احساسه بالمسؤولية جذور عميـــقة صاحبت المثنى ابن حارثة منذ خطواتـــه الأولى الى ارض السواد [2] .

ونحب ان نقف هنا قليلا عند الكلمة التي قالها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت سبباً في حملة المؤرخين قديمهم وحديثهم على العلاء رضوان الله عليه ، وهي قول عمر : « واظنه لم يرد الله بذلك » .

لا بد ان يكون واضحاً في تصورنا ان مقاييس عمر رضي الله عنه الذي كان ينظر بنور الله في كل اموره غالية ونادرة وهي من باب « حسنات الابرار سيئات المقربين » فهو يريد الكمال في القصد والعمل ، ويعتبر ان اي شائبة تشوب العمل مهما كانت قليلة ، فانها تبتعد به عن تجرد القصد .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٤٨ ،

(٢) ارض السواد هي ارض العراق سميت بذلك لخضرتها بالزروع والاشجار ، وكان العرب يسمون الاخضر سواداً . وكانت في ذلك الوقت مستعمرة فارسية وان كان سكانها الاصليون عرباً اصلاء .

ان الدوافع التي كانت تدفع عمر رضي الله عنه الى القسوة مع الولاة والعمال دوافع عميقة واصيلة ، فقد كان رضي الله عنه يخاف الدنيا على نفسه وعليهم ، وما كانت هذه القسوة إلا رحمة بهم وخوفاً عليهم وعلى الأمة . ولعمق هـــذه الدوافع عند امير المؤمنين واصالتها كان رضي الله عنه يبدأ اولا بتطبيق اوامره على اقاربه ، فقد كان إذا نهى الناس عن شيء جمع اهله فقال :

إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فان وقعتم وقعوا ، وإن هبتم هابوا ، واني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني ، فمن شاء منكم فليتقدم ، ومن شاء فليتأخر .

وبنفس الاسلوب كان يعامل ابناءه من صلبه واهل بيته ، فقد صادر ربح ولده حين تاجر مرة في عدد من الإبل ، صادر نصف ربح ولديه وزوجته .

فعن عبد الله بن عمر قال : اشتريت إبـــلا وسقتها إلى الحمى ، فلما سمنت قدمت بها ، فدخل عمر السوق ، فرأى إبلا سمانا فقال : لمن هذه ؟

قيل : لعبد الله بن عمر ،

فجعل يقول : يا عبد الله ! بخ بخ ... ابن امير المؤمنين ! فجئته أسعى ، فقلت : ما لك يا امير المؤمنين ؟

قال : ما هذه الإبل ؟

قلت : إبل انضاء (هزيلة) اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى ابتغي ما يبتغي المسلمون .

فقال : ارعوا إبل ابن امير المؤمنين ! اسقوا إبل ابن امير المؤمنين ! يا عبد الله بن عمر ! خذ رأس مالك ، واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

* * *

عن اسلم قال : خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر في جيش إلى العراق فلما قفلا مرّا على ابي موسى الاشعري وهو امير البصرة فرحب بهما وسهل وقال : لو اقدر لكما على امر انفعكما به لفعلت ، ثم قال : بلى ، ها هنا مال من مال الله اريد

ان ابعث به إلى امير المؤمنين واسلفكماه فتبتاعان به متاعاً من العراق ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال الى امير المؤمنين ويكون لكما الربح ، ففعلا ، وكتب الى عمر ان يأخذ منهما المال . فلما قدما على عمر قال : اكل الجيش اسلف كما اسلفكما ؟ فقالا : لا . فقال عمر : ادّيا المال وربحه . فأما عبد الله فسكت ، واما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك يا امير المؤمنين ، لو هلك المال او نقص لضمناه . فقال : اديا المال . فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : يا امير المؤمنين لو جعلته قراضاً (شركة) . فقال عمر : قد جعلته قراضاً ، فأخذ راس المال ونصف ربحه واخذا نصف ربحه .

وصادر ربح زوجته .

قدم بريد ملك الروم على عمر ، فاستقرضت امرأة عمر ديناراً فاشترت به عطراً وجعلته في قوارير ، وبعثت به مع البريد الى امرأة ملك الروم

فلما اتاها فرغتها وملأتهن جواهر ، وقالت : اذهب به الى امرأة عمر . فلما اتاها فرغتهن على البساط ، فدخل عمر فقال : ما هذا ؟ فأخبرته ، فأخذ عمر الجواهر فباعها ودفع الى امرأته ديناراً ، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين .

* * *

هكذا كان عمر مع نفسه وولده واهله ، ونختم هذه النماذج التي تكشف لنا عن حقيقة شدة عمر مع عماله ، وتوضح لنا الدوافع النبيلة لهذه الشدة والغاية من ورائها . لنختتمها بهذا النموذج الذي يكشف عمر بن الخطاب فيه عن نفسه القوية ، وقلبه الممتلىء بخشية الله ، واستمساكه بنهج رسول الله ﷺ وخليفته ابي بكر ، فهذا عمر في موقف من مواقفه الخالدة مع قومه من بني عدي .

قال الوليد بن هشام بن المغيرة : يا امير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً وجندوا جنوداً ، فدوّن ديوانا وجند جنوداً ، فأخذ بقوله . فدعا عقيل بن ابي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا نُساب قريش وكتابها .

فقال : اكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوا ، فبدأوا ببني هاشم ، ثم اتبعوهم أبا بكر وقومه ، ثم عمر وقومه ، على الخلافة .

فلما نظر اليه عمر رضي الله عنه قال : وددت والله أنه هكذا ولكن ابدأوا بقرابة النبي ﷺ الأقرب فالأقرب ، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله وكان ذلك سنة عشرين .

قال أسلم : رأيت عمر بن الخطاب حين عرض عليه الكتاب وبنو تيم على أثر بني هاشم ، وبنو عدي على أثر بني تيم ، فأمسه يقول : ضعوا عمر موضعه ، وابدأوا بالأقرب من رسول الله ﷺ .

فجاءت بنو عدي إلى عمر . فقالوا : أنت خليفة رسول الله ﷺ . (أو خليفة أبي بكر وأبو بكر خليفة رسول الله ﷺ) فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم .

فقال : بخ بخ بني عدي ، أردتم الأكل على ظهري . وأن أهب حسناتي لكم . لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر (أي ولو أن تكتبوا آخر الناس) . إن لي صاحبين سلكا طريقاً ، فان خالفتُهما خولف بي ، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا ، ولا ما نرجو من الآخرة من ثواب الله على عملنا إلا بمحمد فهو شرفنا وقومه أشرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب . ان العرب شرفت برسول الله ﷺ ولو ان بعضها يلقاه الى آباء كثيرة . وما بيننا وبين أن نلقاه إلى نسبه ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة ، مع ذلك والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال ، وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فلا ينظر رجل إلى القرابة ، ولنعمل لما عند الله فان من قصر به عمله لم يسرع به نسبه .

* * *

على ضوء هذه الجولة مع عمر نستطيع أن نعطي القيمة الحقيقية لكلمة عمر ابن الخطاب عن العلاء بن الحضرمي التي قال فيها : « وأظنه لم يرد الله بذلك » .

ومن الانصاف للعلاء أن نقول :

لعله عندما أقدم على الغزوة البحرية من غير استئذان كان في اعتباره موقف الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه من المثنى بن حارثة عندما أقدم على غزو

أرض السواد من غير رجوع إلى الخليفة فأقره أبو بكر وأمده وأعانه . فأعطت هذه السابقة للعلاء قياساً ظن معه أن موقف عمر بن الخطاب منه سيكون كموقف أبي بكر من المثنى إلا أن المثنى حالفه التوفيق، والعلاء اجتهد ولم يكن الانتصار من نصيبه .

وإذا كان هناك احتمال للمنافسة كما ذكرت بعض المراجع التاريخية فهي لا تخرج عن كونها منافسة في الخير والجهاد والتضحية والبذل قياماً بالواجب على حد قوله تعالى : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا ينظرون إلى المسؤولية على انها أمر من باب التكليف . فهم من ذوي النفوس الكبيرة والهمم العالية ، والمقاصد السامية ولا يخرج الأمر في نفسية العلاء عن هذا الحد لما عرف فيه من الصلاح والتقوى ومراقبة الله في جميع أموره .

بيان وتوضيح

وإذا كان قد ورد في نصوص الإمام الطبري وابن الأثير ما يفيد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد منع من ركوب البحر استناناً بالنبي ﷺ فليس معنى هذا ان السنة تمنع من ركوب البحر ، وإنما المقصود هو ان ركوب البحر بقصد الغزو لم يكن قد حدث على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد ابي بكر وليس من المعقول ان يظن ظان غير ذلك .

يقول الطبري بعد ذكر قصة العلاء في غزوة فارس بأهل البحرين عن طريق البحر :

« فحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر ، وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه غازياً يكره التغرير بجنده استناناً بالنبي ﷺ وابي بكر »[1] .

وليس يخفى على أحد انه ليس كل ما لم يحدث على عهد الرسول ﷺ لا يجوز فعله فهناك إجماع العلماء ، والقياس ، والاجتهاد ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان وغير ذلك من الأمور التي تفرضها نظرة الإسلام الواسعة إلى شئون الحياة .

بل إن رسول الله ﷺ صرح في بعض احاديثه بالثناء والمدح للغزاة من المسلمين فوق ظهر البحر ، ووصفهم ﷺ وصفاً أثار رغبة صحابية جليلة في أن تكون من ذوات هذه الأوصاف فطلبت من الرسول ﷺ أن يدعو الله ان يجعلها منهم .

إنما عدم ركوب البحر في عهد رسول الله ﷺ وابي بكر راجع إلى ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت ، والمجال الذي وجد في عهد الرسول ﷺ وعهد

---

(١) الطبري جـ ٤ صـ ٢١٢ .

أبي بكر لم يكن يسمح بالغزو في البحر .

وأما نهي عمر عن ذلك فمرده إلى الخوف على قوة المسلمين النامية ان يصيبها ما يرهقها في ذلك الوقت ، وهو ايضاً كان يتخوف عليها في البر كما حدث في تردده في ذلك الوقت في الإذن لعمرو بفتح مصر وكما فعل في بداية حياته حين منع الانسياح في بلاد العجم بعد الاستيلاء على السواد في العراق .

وهذا يدل على شعور امير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمسئولية الدقيقة للحاكم المسلم في كل خطوة يخطوها وامر يأمر به .

وقد ورد في صحيح السنة فضل الغزاة في البحر . وكان رسول الله ﷺ يضحك سروراً وهو يتحدث بما رأى من فضلهم . وقد روى البخاري ومسلم هذه الأحاديث ، وابن سعد في طبقاته وغيرهم وسنختار من هذه الأحاديث لفظ مسلم .

رواية الامام مسلم

حدثنا يحيى بن يحيى قال قرأت على مالك عن اسحاق بن عبد الله بن ابي طلحة عن انس بن مالك ان رسول الله ﷺ كان يدخل على ام حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت ام حرام تحت عبادة بن الصامت فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته ثم جلست ... فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت : فقلت : ما يضحكك يا رسول الله قال : ناس من امتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة (يشك ايها قال) قالت : فقلت يا رسول الله ادع الله ان يجعلني منهم فدعا لها..

فركبت ام حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت [1] .

قال الإمام النووي :

اتفق العلماء على ان ام حرام كانت مَحْرَماً له ﷺ ، ولذلك جاز دخول رسول الله ﷺ بيتها .

وكان ضحك رسول الله ﷺ بعد استيقاظه من النوم سروراً بدرجة المجاهدين

---

(١) صحيح مسلم جـ ١٣ صـ ٥٧ .

من امته الذين يغزون في البحر ويرفعون كلمة الله .

والمراد بالثبج بفتح الثاء والتاء هو ظهر البحر ووسطه .

ومعنى قوله ﷺ كالملوك على الاسرة انهم يملكون الركوب لهذا البحر في استقرار وسفن واسعة لاستقامة أحوالهم وكثرة عددهم .

وقيل هو وصف لأحوال المجاهدين في الآخرة .

وقد تحقق كلام النبي ﷺ كله وعاشت ام حرام حتى ركبت البحر مع المجاهدين الغزاة في سبيل الله .

قال اكثر اهل السيرة وكان ركوب ام حرام للبحر وموتها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وزمان حكم معاوية للشام عندما ذهب المسلمون لغزو قبرص ودفنت هناك [1] .

وقد رأينا ان نورد تحقيقاً موسعاً عن المعارك البحرية التي خاضها المسلمون ليزيد القاريء معرفة بهذه المعارك ، وهو موضوع لا يعتبر دخيلا على شخصية العلاء رضي الله عنه .

ولعل المسلمين اليوم ينظرون إلى هذا الأمر نظرة جدية ليستعيدوا بحارهم ، ولا يعيشوا غرباء عن أمجاد تاريخهم .

---

(١) صحيح مسلم شرح النووي جـ ١٣ صـ ٥٧ – ٥٩ بتصرف . وانظر هذه القصة في البخاري جـ ١٢ صـ ١٥١ وانظر طبقات ابن سعد جـ ٨ صـ ٤٣٠ والطبري .

المعارك البحرية في الاسلام

يقول الاستاذ سامي محمود :

قالوا إن أعظم سفن المسلمين هو « الجمل » ... إنه سفينة الصحراء العظيمة التي اعتادوا ركوبها ! ! ولم يمض وقت طويل على هذا الافتراء حتى كانت اساطيل المسلمين توجه أعنف الضربات إلى البحرية الرومانية وتحطم مجموعة اساطيلها في البحر الأبيض المتوسط وتحول « بحر الروم » — هكذا كان اسمه — إلى بحيرة عربية إسلامية .

وقد توجهت اساطيل المسلمين إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية في البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الشرقي لحماية سوريا والشام ، والجزء الأوسط لحماية مصر وإفريقيا ، والجزء الغربي لحماية شمال إفريقيا واسبانيا « الأندلس » .

وليس صحيحاً ان الاسطول العربي كان اسطولا للقرصنة والنهب ، بل إن شأنه في ذلك شأن الفتح الاسلامي جميعه ، لتأمين الدعوة وحمايتها ، وتأمين خطوط القوات الإسلامية ، ومسار الاسطول التجاري العربي ، الذي كان يتنقل بين ثغور البحر الابيض ويعبره إلى المحيط الهندي ليتاجر مع الهند والصين وجنوب شرقي آسيا ، وكان كما هو شأنه دائماً همزة الوصل بين الشرق والغرب .

لذلك فإننا نجد الاسطول العربي قد أقام أربع قواعد اساسية لقواته ، الاسطول الاول ومركزه سورية ، الاسطول الثاني ومركزه مصر ، الاسطول الثالث ومركزه تونس ، الاسطول الرابع ومركزه الاندلس وصقلية . وكانت

كل قاعدة من هذه القواعد البحرية تساندها قوات برية ضخمة ترابط في «الثغور» لحماية البلاد، وإلى جانب ذلك مدرسة عسكرية بحرية لتخريج العسكر والضباط والملاحين وتدريبهم على فنون القتال في البحر وعلومه ودار للصناعة « ارسنال » لصناعة السفن، والعرب هم الذين اخترعوا البوصلة وعلم الجبر والمثلثات والبارود واول من رسم خريطة للعـــالم وحوض البحر الابيض المتوسط وعلوم الفلك والحساب .

وقد يساعدنا كثيراً على تصور المعارك الحربية في البحر عند العرب دراسة لأشكال السفن وعدة القوات البحريـــة المقاتلة واسلحتها ، قبل ان ننتقل إلى معاركهم البحرية الشهيرة واستيلائهم على قبرص ورودس وجزر بحر إيجة وصقلية ومالطة وسردانية وكورسيكا وجزر البليار ، ثم استيلائهم على شواطيء اليونان وإيطاليا وغزو روما .

وقد كانت اكبر قطع اسطول المسلمين « الشونة » وهي اشبه بالمدمرة ويبلغ طولها ٢٠٠ متر تقريباً بها ابراج متعددة — غالباً اربعة — للدفـــاع والهجوم ويركب فوقها المنجنيق وحملة السهام وبها ١٤٣ مجذافاً ومخازن للاغذية والحيوانات وصهاريج للمياه . وهي بمثابـــة سفينة للقيادة ومزودة بأمهر فرسان البحر . و « الحراقة » أو قاذفـــة اللهب وتختص بحمل المنجنيقات التي تقذف اللهب ، والبارود ، والنار ، وقذائف من الجير الحي المدقوق ليعمي ابصارهم ، والصابون ليزحلقهم و « البطس » وهي من اكبر السفن الجربي وكانوا يستخدمونهـا في الأمداد ، ثم زوارق الهجوم الخاطف وكان اسمها « العشاريات » و « العشرية » وهي السفينة الصغيرة التي تستخدم المجاذيف .. إلى جانب اعداد اخرى مـــن السفن « الدرمونة » و « الفلايك » و« الغراب » و « والبركوس » و« الشلنديات» وهي تستخدم في التموين والمساعدة في العمليات . ولعل اغربها سفينة « اللجام» او « الفاس » وهي سفينة سريعة مزودة بحربة ضخمة تستخدم في الاصطـدام بسفن العدو واحداث ثقب بها ثم إغراقها ، وكانوا يطلون سفنهم بعجينة ممزوجة بالخل والشب والنطرون لحمايتها من الاشتعال ويدهنون سفنهم باللون الازرق للتمويه على العدو ، ويستخدمون « الكلابشات » ذات السلاسل في إلقائها على

سفن الاعداء والالتصاق بها.. كما كانوا يحملون البلط القوية لكسر هذه السلاسل في حالة الدفاع .

وقد استخدم المسلمون البارود والاسلحة النارية في تسليحهم، وهم اول من ابتدع فكرة الالتحام مع العدو فوق سطح الماء بحيث تكون المركبتان قطعة ارض عائمة ، ثم يستخدمون – بعد هذا الالتحام – الخيول وهم سادتها وهم ايضاً الذين حملوا نوعاً من الدبابات والابراج والسلالم والفرسان فوق سفنهم وكونوا بذلك جيوشاً متحركة لشن هجوم كامل في البر او البحر على السواء ، وكان جنودهم يحملون السيوف والخناجر « والسهم والبندق » والخيول والسلاسل والتروس .

وقد لعبت الصناعة العربية دوراً ضخما في بناء هذه الترسانات الضخمة في كل من الاندلس وتونس وسوريا ومصر ، واستفاد المسلمون من العمال الإغريق والرومان ، إلا ان اكبر فائدة كانت من مصر التي عرفت البحر منذ عهود بعيدة وجابت اساطيل الفراعنة مناطق كثيرة ، ثم انشئت في الروضة في اول الفتح الاسلامي اول ترسانة بحرية ثم نقلت إلى الفسطاط زمن الاخشيد ثم وسعت في عهد ابن طولون ثم الفاطميين في « المقس » قرب حدود مدينة القاهرة القديمة فضلا عن الاسكندرية .

وهكذا اتيحت للمسلمين درجة عالية من علوم البحار ، واستطاعوا خلال ٥٠ عاما فقط من بدء الدعوة إلى الإسلام ان يجوبوا البحر الابيض – اهم بحر في زمنهم وما زال ، ويخضعوه لسلطانهم وبدأت اساطيلهم تتحرك منذ خلافة عثمان بن عفان ، لتنقض على جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ « ٦٤٨ م » وتوجه ضربة قاتلة الى الاسطول البيزنطي في موقعة « ذات الصواري » عام ٣١ هـ .

والحقيقة ان معاوية بن ابي سفيان اول مؤسس للاسطول الإسلامي .. وكان دائم الإلحاح على عمر بن الخطاب بأن يسمح له بالغزو بحراً .. لكن عمر بن الخطاب بثاقب نظره كان يكره ان يقيم حائلا طبيعيا بين قوات المسلمين المتقدمة وقواعدهم الاساسية وبخاصة في بدء انتشار الإسلام .

إلا ان معاوية بن ابي سفيان كان لا يفتأ يلح على عمر وكان يقول له : « يا امير المؤمنين .. إن بالشام قرية يسمع اهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص .

مهما يكن من أمر فان عمر ما كاد ينتقل إلى جوار ربه حتى جدد معاوية طلبه إلى الخليفة الجديد عثمان بن عفان — وبينهما نسب واحد — وأذن عثمان وتحركت قوات معاوية البحرية إلى قبرص فأخضعتها سنة ٢٨ كما سبق الإشارة إلى ذلك ، واستمرت أساطيله تقوم بأكثر من ٥٠ غزوة في الصيف والشتاء على جزر حوض البحر الأبيض وبخاصة جزر اليونان ، وقد فرض معاوية الجزية على هذه الجزر وبلغت في قبرص ٧٢٠٠ قطعة ذهبية وطلب اليهم معاوية تعهداً بضرورة إخطاره بأي تحركات للروم أو أساطيلهم ضد القوات المسلمة .

وأحس الرومان بما يحدث وقرروا توجيه ضربة قاتلة إلى المسلمين . فتوجهت ٣٠٠ سفينة رومانية إلى الإسكندرية وهاجمتها بغتة وتوغلت حتى وصلت إلى حصن بابليون قرب مصر القديمة ، وفي نفس الوقت توجهت حملة اخرى لمهاجمة دمشق ، وعلى الفور قرر عثمان أن يرسل عمرو بن العاص لصد الروم .

واستطاع عمرو أن يقهر الروم ويطاردهم حتى الاسكندرية ثم يقتحم أسوارها ويبيد الحامية الرومانية جميعها ويقتل قائد الروم « مانويل » ، وعلى الجانب الآخر فان معاوية استطاع أن يقهر قوات الغزو ، وغلبت الروم . لكن الامبراطور « كونستانس الثاني» يقرر القيام بحملة بحرية يقودها بنفسه للاستيلاء على مصر قلب العالم الإسلامي .

وعلى الفور اجتمع عبد الله بن سعد ابن ابي سرح — والي مصر — بقادة القوات المصرية ، وقرروا الخروج إلى البحر للقاء قوات الغزو وعلى الجانب الآخر أرسل معاوية مجموعة من سفنه لمساندة القوات المصرية ، وكان يقدر عدد سفن المسلمين بـ ٢٠٠ سفينة بينما تراوحت سفن الروم بين ٧٠٠ وألف سفينة والتقى الجمعان عند مدينة « فوينكس » على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى وتقدمت سفن المسلمين كأنها بنيان مرصوص، وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض ، ثم

ربطوها بسفن العدو ، وبدأوا هجومـــاً عنيفاً لم يسبق له مثيل ، حتى ان « الطبري » المؤرخ يقول ان الدم كان غالباً على البكاء . وقال مؤرخوهم انها كانت « يرموكا » ثانية على الروم ، واليرموك الأولى غلبهم المسلمون على البر بقيادة خالد بن الوليد .

ويقول احد شهود العيان — كما رواها الطبري — : فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلها قط وكانت الريح علينا ، وقلنا ان أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ، وإن شئتم فالبحر فاختاروا البحر فدنونا فربطنا السفن بعضها إلى بعض ، وتقاتلنا اشد القتال ، وطوحت الأمواج جثث الرجال ركاماً ، وتم النصر للمسلمين.

وفي هذه المعركة هرب الامبراطور إلى صقلية حيث قتـــله اهلها « داخل الحمام » . وقد كانت هذه المعركة في واقع الأمر الضربة القاضية الأولى لأساطيل الروم .

ولم يمض وقت طويل حتى اندفعت البحرية الإسلامية إلى شرق وقلب وغرب البحر الأبيض في محاولة لتأمين حدود بلاد المسلمين ، وشهدت مصر زمن عبد الملك بن مروان جيشاً ضخما من العلماء والفنانين والصناع المهرة يخرجون من مصر سنة ٨٦ هـ ليبنوا قاعدة بحرية ضخمة في قرطاجنة ليحموا الجناح الغربي للعالم الإسلامي ، واستطاع المسلمون في أواخر القرن التاسع الميلادي ، أن يحولوا البحر الأبيض إلى بحيرة إسلامية تماماً وأن يسيطروا على التجارة والنقل بـــين الشرق والغرب وان يأمنوا غزو بلادهم من أعدائهم التقليديين ! ! واستطاعوا عن طريق سيطرتهم على قبرص وكريت وصقلـــية وجزر البليار ، ان يحموا سوريا ومصر وشمال افريقيا واسبانيا .

وقد استطاعت أساطيل المسلمين ان تستولي على مجموعة كبيرة مـــن جزر بحر إيجة وبحر مرمرة ووصلوا — في بعض الروايات — إلى اثينا نفسها .

وقد تمكن المسلمون من غزو قبرص سنة ٢٨ هـ ثم عاد معاوية فغزاها سنة ٣٣ هـ واحتلها بـ ١٢ الف فارس ، وتكرر غزوها عدة مرات من قبل المسلمين والروم والصليبيين حتى نجح السلطان برسباي سلطان الجراكسه في مصر من

الاستيلاء عليها عام ١٤٢٦ م وظلت تدفع الجزية لمصر .

وكذلك نجح المسلمون في الاستيلاء على رودس ابتداء من عام ٦٤٨ م وظلت تتأرجح بين المسلمين واعدائهم حتى اعاد العثمانيون الاستيلاء عليها عام ١٥٢٢م.

على ان جزيرتي كريت وسالونيكا لعبتا دوراً هاماً في معـــارك الاسطول الإسلامي وكانتا تمثلان موقعاً هاما بالنسبة لبلاد المسلمين . لذلك فاننا نجدالوليد ابن عبد الملك يوجه اليها اول حمـلة بعد ان ادرك اهميتها بالنسبة لاستراتيجـية المسلمين ، ويحاول الرشيد مثل ذلك ، وتنجح هذه القوات في احتلال مناطق من الساحل على ان اول غزو شامل لها كان عام ٢١٠ هـ على يد مجموعة من الثوار العرب المهاجرين من الأندلس .

وهؤلاء المهاجرون لهم قصة ، فقد ثاروا على الحكم بن هشام امير الأندلس في رمضان سنة ٢٠٢ هـ ، وكانوا يقيمون في « الربض » الجنوبي لقرطـبة لذلـك عرفوا بالربضيين ، واستطاع الحكم ان ينتصر عليهم ويشتت شملهم ويحرق ديارهم وامر بخروج من بقي منهم إلى خارج البلاد .. فتفرقوا في البلاد الإسلامية ، على ان معظمهم هاجر إلى الإسكندرية وعندما وصلوا وجدوا حرباً اهلية قائمة ، واستطاعوا ان يستولوا على الاسكندريـة وبدأوا منها عمليات منتظـمة لغزو ارخبيل اليونان . إلا ان الخليفة المأمون يرسل حملة بقيادة عبد الله بن طـاهر تقمع الفتنة ، ويقرر العرب الأندلسيون بقيادة زعيمهم « أبو عمر حفص بـن عيسى الاندلسي » المعروف باسم الاقريطشي او البلوخي او ابو شابس » بمغادرة الاسكندرية ، ويتفق معهم عبد الله بن طاهر على السير الى كريت بعد ان يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من سفن وعتاد واموال .

واستطاع هذا الثائر العبقري ومعه ١٥ ألف رجل ان يخضع الجزيرة بضربة واحدة ، وما ان تم له النصر حتى احرق السفن وقال لجنده ، فيم شكوا كم لقد حملتكم إلى ارض تفيض باللبن والشهد . وحفر حول الجزيرة خندقاً هائلا ـــمازال يعرف بهذا الاسم ، واسس المسلمون دولة صغيرة استمرت اكثر من مائة عام ، ومن هذه الجزيره تمكن المسلمون من الاستيلاء على عدد كبير من الجزر وهددوا

جنوب اليونان كله. لكنهم من ناحية اخرى كانوا احد المواقع المتقدمة للمسلمين ونقط إنذار لهم وتعرضوا دائما لغزوات اعداء المسلمين .

ولعل من اخطر الهجمات التي قام بها المسلمون في البحر الأبيض هجومهم الرائع على ثغر سالونيك في قلب اليونان سنة ٩٠٤ م واستطاع القائد العربي « غلام زراقة » حسب بعض الروايات العربية او (ليون الطرابلسي) حسب بعض الروايات البيزنطية ، استطاع هذا القائد البحري ان يخترق قلب الامبراطورية ويغزو اهم ثغورها بعد القسطنطينية .

واستطاع « غلام » ان يأسر عدداً من السفن الرومانية اثناء تحركه ، وانضم اليه عدد من المجاهدين المسلمين بسفنهم « تسميهم الكتب الغربية القراصنة » ، وعندما اقترب « غلام » من مدخل بحر إيجه فوجيء بالاسطول البيزنطي يقف أمامه ، لكنه كان في حالة من الضعف يرثى لها ، الامر الذي اضطره إلى الانسحاب السريع داخل « الدردنيل » ليحتمي بقواعده هناك ... واصبحت « سالونيك » لقمة سائغة للاسطول المسلم . ورغم دفاعها المجيد ورغم انها سدت مدخل « الأرخبيل » بالحجارة والسفن الغارقة فان « غلام » استطاع ان يرسل اليها مجموعة من فرسانه لجس نبض القوات المحاربة ، وارتدت هذه القوات بسرعة لتهاجم مجموعة من « الحراقات » المزودة « بالمجانيق » و « الدبابات » ، — وهي حصون صغيرة متحركة من الخشب المجلد — إلا ان « غلام » العبقري لم يكن هدفه هذا الهجوم بل كان يهدف إلى شغل القوات المدافعة في الوقت الذي استدارت فيه قواته حول الحصن .. وتقدمت مجموعات من السفن تسير كل اثنتين متجاورتين وهما تحملان ابراجا عالية استطاعوا منها ان يشنوا هجوما قاسيا على المدينة مستخدمين النار والبارود والسهام وكانت الموجة الأولى من المهاجمين « بحارة السفن السكندرية » ، وهاجم مشاة الاسطول المسلم بسيوفهم المدينة وهم يصيحون أشه اكبر أشه اكبر . . واستطاع « غلام » او « ليون الطرابلسي » ان يأسر اكثر من ٢٢ ألفا من بينهم المؤرخ البيزنطي « يوحنا كامنياتس » الذي روى قصة هذا الهجوم الجريء .

ولم يصدق احد ان المسلمين في قلب اليونان ، وكان اسلوب القوات المسلحة ،

هو الهجوم الخاطف وشدة الحذر وإجادة التخفي ، حتى أن الروايات التاريخية ، تروي مدى الرعب والفزع الذي عم أنحاء اليونان عندما سمعوا بوصول المسلمين المفاجيء ، وعلى الجانب الآخر ساعدت هذه الهجمات التي قامت بها مجموعات من مجاهدي المسلمين في بث الرعب لدى الامبراطورية البيزنطية وشغلها عن التفكر في الاعتداء على الأراضي المسلمة أو اعتراض طريق مواصلاتها ، وليس صحيحاً أن هذه الغزوات قام بها مجموعة من المغامرين دون توجيه ، وربما لا يتسع المجال هنا لإثبات عكس ذلك ، لكن الأحداث كانت تؤكد جميعها ان المسلمين لم يختاروا أهدافهم عبثا ، وان الدفاع عن ثغور المسلمين كان من اعلى مراتب الجهاد عند المسلمين .

وسنرى أنهم باستيلائهم على مالطة وصقلية وجزر البليار ، أمنوا حدودهم وطرق تجارتهم تماماً مثلما فعلوا في شرق البحر المتوسط عندما استولوا على قبرص وكريت وسالانيك .

وقد وجه المسلمون أنظارهم نحو مالطة باعتبارها أحد المفاتيح الرئيسية للمنطقة الوسطى لحوض البحر المتوسط ولحماية أمنهم في شمال افريقيا واسبانيا ، وبدأت غارات المسلمين عليها عام ٨٠٠ م وظل المسلمون بها أكثر من ٢٢٠ سنة وكان « للأغالبة » الفضل الأكبر في فتحها وينسب إلى زياد الله الأغلبي بدء فتحها الأول سنة ٢٢١ هـ .. ولم يستول على الجزيرة فحسب بل على مجموعة الجزر التابعة لها وهي « جوتزو وكمونه وكومينوتو وفلفلة » .

وعلى الجانب الآخر نجح العرب في الاستيلاء على مجموعة جزر البليار الملاصقة لشرق اسبانيا وكان طبيعيا ان يوجه « موسى بن نصير » القائد العام لقوات الغزو في اسبانيا انظاره إلى هذه الجزر فوجه ابنه إلى اهم جزرها « ميورقة » واستطاع عبد الله ان يستولي عليها ويخضعها لقوات المسلمين ، ولهذه المجموعة من الجزر « ميورقه ومنورقه ويابسه » إلى جانب سردانيا و « كورسيكه » اهمية قصوى في إقفال البحر الأبيض المتوسط تماما من اهم جهاته ، وقد استخدمت هذه الجزر إلى جانب صقلية كنقطة للوثوب إلى سواحل إيطاليا وفرنسا .

وموسى بن نصير هو الذي هاجم جزيرة سردانيا ايضا عام ٢١٢ هـ . وتوالت عليها الغزوات الإسلامية من المغرب والأندلس كان ابرزها غزوات « الأدارسة والأغالبة » على ان اقوى ضربة وجهت الى هذه الجزيرة وجعلتها جزءاً من الاراضي الإسلامية كان في سنة ٣٢٣ هـ عندماهاجمها يعقوب بن اسحق من شمال افريقيا بأكثر من ٣٠ سفينة حربية وتبعه « مجاهد الداني » في القرن ١١ الميلادي الذي هاجمها في ١٢٠ سفينة حربية وألف فارس وكان قائداً محنكا استطاع ان يسيطر تماما على الجزيرة حتى انه اكثر المجاهدين لوما في كتب الغرب .

وقد كانت سيطرة المسلمين على كورسيكا مصدر رعب الإيطاليين حتى ان البابا استجار بشرلمان امبراطور الامبراطورية الغربية لينقذ ايطاليا من غزوات المسلمين المتكررة سنة ٨٠٨ م .

لكن « صقلية » كانت دائما موضع انظار المسلمين منذ القرن الأول الهجري وان معاوية ارسل مجموعة من قواته يقودهاعبد الله بن قيس الفزاري..واستطاع ان يستولي عليهاعام٢٣٦ هـ ... وكان مما عاد به في حملته « اصنام من ذهب وفضة » .. الا ان اول غزو حقيقي كان في القرن الثالث الهجري حين استقل شمال افريقيا عن خلافة المشرق وكان للأغالبة فضل كبير في اخضاع اجزاء كبيرة منها وتمكنوا من القضاء على الاسطول البيزنطي .. وشهدت تونس اكبر قاعدة بحرية في هذا العصر فيالقرن الثالث الهجري واستطاع الاغالبة أنيؤمنوا شواطيء بلادهم من « البيزنطيين والفرنج » وهي القوى الاجنبية العظمى التي يخشى بأسها .

وتروي كتب التاريخ قصة أميرالبحرالبيزنطي « حاكم صقلية »(اوفيميوس) أو (فيموس) الذي أمر الامبراطور ميخائيل الثاني بقتله (لأنه خطف راهبة) فهرب إلى شمال افريقيا واستغاث بأميرها (زياد الله الاغلب) وطلب منه غزو صقلية ووعده بملكها .. وأرسل زياد أحد قواده أسد بن الفرات الذي استطاع ان يكتسح الجنوب ويستولي على بالرمو ، واستمرت معارك المسلمين بالجزيرة

اكثر من خمس سنوات ، وفي كثير من الاحيان كانت الاساطيل الإسلامية في الاندلس تساعد في ذلك .. وقد سقطت آخر مدينة في صقلية « تاورامينا » سنة ٩٠٢ م بفضل « ابراهيم الاغلبي » .. وقد استنجد احد أمراء اللومبارد بجنوب يطاليا بأمير صقلية المسلم – الفضل بن جعفر – فأرسل اليه حملة قوية استولت على « كلابريا » في أقصى جنوب إيطاليا واحتلت ثغر « بارى » .

على أن أجرأ الحملات التي قام بهـا الأسطول الإسلامي هي غزوهم لروما ، عاصمة القياصرة المهيبة مرتين واتخذوا صقلية نقطة وثوب إلى شواطيء إيطاليا، جميعها ، ففي سنة ٢٢٦ هـ وأثناء ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب امير افريقيا والفضل بن جعفر الهمذاني أمير صقلية ، تحركت مجموعات سريعة من الأسطول الإسلامي وسارت بمحاذاة الشاطيء الايطالي واستولت أثناء تحركها على مجموعة من ثغورها اهمها جاتيا وفوندي ، ورسا الاسطول الاسلامي عنـــد مصب نهر « تفيري » ، ونزل مشاة الأسطول إلى مدينة الأباطرة الخالدة ، وانقضوا بسرعة خاطفة على المدينة واستولوا عليها ، وفزع الأهالي وهربوا أمام القوات المتقدمة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الحي القديم من مدينة روما وبـــه كنيسة القديس بطرس وبولس ، ووجدوا عدداً من الهياكل والأصنام عليها ذهب وفضة فجردها من زينتها ، وفرضوا الحصار على المدينة ، كل هذا والمدينة لم تفق بعد من الغزو السريع ، وأرسل البابا سرجيوس الثاني رسالة سريعة إلى لويس الثاني ملك الفرنج يطلب النجدة كما أرسل رسائل أخرى إلى نابلي وغيرها .. وعـــلى الجانب الآخر تحركت مجموعة أخرى من الأسطول الإسلامي مسرعة لشدأزره، وقاتلت مجموعات السفن التي وصلت لإنقاذ روما ، وألحقت بها خسائر فادحة ، إلا أن خلافاً حاداً نشأ بين قادتها الأمر الذي اضطرها للانسحاب .

غير أن محاولة أخرى قام بها الأسطول الإسلامي للانقضاض على رومـــا ، وتعاون أمير افريقيا محمد بن أحمد بن الأغلب وأمير صقلية خفاجة بن سفيان ، (سنة ٢٥٠ – ٢٦١ هـ) وكانوا قد قاموا بسلسلة فتوحات لمالطة وسردينيا ، وسارت مجموعات من سفنهم تعاونها مجموعات أخرى من سفن المسلمين في الأندلس

وقصد الأسطول الكبير مصب نهر تفيري على بعد ١٦ ميلا من روما ، ورغم ان البابا ليون الرابع قد حصن المدينة وضم أجزاءها ضمن السور العظيم ، ورغم انه عقد معاهدة مع جميع أمراء إيطاليا للدفاع عن المدينة ، إلا ان الأسطول الإسلامي هاجم الشواطىء الإيطالية وخرج اليه الأسطول المدافع ، وقامت معركة بحرية ضخمة في مياه روما نفسها . واضطر المسلمون أسطول الفرنج إلى الهرب وساعدهم في ذلك العاصفة التي هبت في ذلك الوقت واحتل المسلمون المدينة ، وفاوض البابا يوحنا الثامن المسلمين ، وسألهم الجلاء مقابل دفع جزية سنوية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة !!

إن قصة البحرية الإسلامية ومعاركها تفوق الخيال وقصة تطورها وتسليحها أغرب من الخيال ولم يتصور أحد أن يصبح بحر الروم العريق بحيرة عربية وعلى حد تعبير « ابن خلدون » فقد كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للامم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر ايامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتشخن في ممالكهم » .

وما زال علماء التاريخ والحرب يدرسون سر انتشار الاسلام ومقدرته على تحقيق هذه الانتصارات وهكذا اثبت قادة سفينة الصحراء انهم قادرون أيضاً على السيطرة على سفن المحيطات ولينصرن الله من ينصره [١] .

ونعود إلى أبي البحرية الاسلامية العلاء بن الحضرمي ، الذي كان له السبق في هذا المضمار لنتابع تاريخه وأحداثه .

ومن هذا يمكن أن ننظر إلى العلاء في اقتحامه البحر بأنه لم ير فيه امراً

---

(١) نشر هذا المقال في صحيفة اخبار اليوم القاهرية تحت عنوان « المعارك البحرية في الاسلام » .

محظوراً وبخاصة انه قد سبق له ان عبره غازيا إلى « دارين » في عهد ابي بكر ، ولا نعرف أن أحداً وجه اليه اللوم في ذلك ، بل انه كان موضع الاعجاب من كثير من الصحابة ، حتى كانت تعد هذه الحملة من كراماته ، ومظهراً من مظاهر تأييد الله له .

ونخلص من ذلك الى ان العلاء كان له من المبررات في ركوب البحر مايسوغ جرأته عليه وبذلك كان أول رائد في عالم البحرية الاسلامية مع اعترافنا بوجوب الاستئذان من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

موقفه بعد عزله

أدرك العلاء كل ذلك ، وعمل العلاء منذ اللحظة الاولى على انفاذ أمر الخليفة بعزله وتحمل عن طيب خاطر مسؤولية ما صنع فأدى واجبه على خير وجه في فتح الاهواز ، كجندي تابع لأمراء المدد الذي جاء لانقاذه .

ومن بعدها آثر العلاء الاختفاء تماماً من فوق مسرح القيادة ، فعمل في صفوف الاخفياء الاتقياء تحت امرة سعد بن ابي وقاص واحسن التعبد الى الله والطاعة في ميادين الجهاد لقادته وكان العلاء دقيقاً في تنفيذه لرغبة عمر ببعده شخصياً عن مواطن الصدارة والذكر ، دون أن يكون لذلك أدنى أثر على علو همته واخلاصه في العمل .

لكن عمر بن الخطاب كان في غاية اليقظة لموقف العلاء المادي والنفسي وكانت عينه ساهرة ترقب صنيع الرجل الكبير في اعزاز وثقة تهيأ بعدها الى اصدار حكم جديد في قضية العلاء .

العلاء يسترد اعتباره

لقد رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان العلاء بن الحضرمي تقبل العقوبة بروح اسلامية لا تشوبها شائبة فهو كما هو تفانياً واخلاصا ، لم يتغير بتغير موقعه في العمل . فليس لحظ النفس نصيب في سلوكه . بل نسي شخصه ، وانكر ذاته

واستوت عنده الجندية والقيادة. فهو المجاهد ذو الهمة العالية التي لا تعرف اليأس أو التردد . ومن هنا فقد اقتنع به أمير المؤمنين أن يكون في مكانه الطبيعي بين قواده .

واقتناع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليس أمراً هيناً ولا شيئاً سهلا . فعمر بموازينه التي لا تعرف المحاباة أو المداراة ، ومقاييسه التى لا ترحم ، خصوصاً مع رجل قد وضعه تحت مجهر العقوبة ، فظهر أن معدن العلاء كان هو المعدن الأصيل الذي يريده عمر . فرأى رضي الله عنه أن يضع العلاء في موقع من أهم مواقع المسؤولية والحساسية بين الفرس والعرب فسيره أميراً على « الكوفة » بعد وفاة عتبة بن غزوان ، لكن المنية أعجلته في الطريق .

يقول ابن كثير :

« وأمّره — عمر بن الخطاب — على الكوفة فمات قبل أن يصل اليها منصرفه من الحج »[1] .

وكان قرار عمر بعودة العلاء ، بين القواد والأمراء ، كان هو الرد التاريخي على هذه الحملة الشديدة التي بالغ فيها المبالغون دون أناة . وهو رده قيمته الكبيرة لأنه يضع هذه الضجة من الاتهامات واللوم في وضع حرج ويجعل الذين خاضوها ضد العلاء أقرب إلى الافتعال والتقليد .

رحم الله أمير المؤمنين عمر الذي كان ينظر بنور الله فدرأ عن العلاء هذه الاتهامات الجائرة من قبل أن توجه اليه . فاختار العلاء بن الحضرمي ليكون والياً على الكوفة واختيار عمر — وعمر بالذات — له مغزاه الكبير الذي لا يخفى فما كان يداري أو يماري في الحق . ولولا ان العلاء أصبح بريء الساحة عند عمر ابن الخطاب براءة تامة وكاملة ، بعد دراسة وتمحيص وتدقيق كانت تجري في دماء عمر وطبيعة حكمه . لولا ذلك لما أعاده إلى الإمارة أبداً .

ونحب أن نسجل هنا السطور الأخيرة من كتاب التكليف الذي وجهه عمر

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٢٠ .

ابن الخطاب إلى العلاء في هذا الشأن :

« واعلم أن أمر الله محفوظ بحفظه الذي أنزله فانظر الذي خلقت له فاكدح له ودع ما سواه فان الدنيا أمد والآخرة أبد فلا يشغلنك شيء مدبر خيره عن شيء باق شره واهرب إلى الله من سخطه فان الله يجمع لمن شاء الفضيلة في حكمه وعلمه نسأل الله لنا ولك العون على طاعته والنجاة من عذابه .

امانة العلاء بن الحضرمي

ويضيف التاريخ إلى سجل العلاء صفحة مشرفة إلى صفحاته البيض ، فقد ضرب لنا العلاء مثلا عالياً في الأمانة وأداء الحقوق عندما كان والياً على البحرين .

لقد بعث إلى رسول الله ﷺ بثمانين ألفاً وهو أكبر قدر من المال وصل إلى رسول الله ﷺ .

فأمر بها فنشرت على حصير ونودي بالصلاة فجاء رسول الله ﷺ فمثل على المال قائماً . وجاء الناس حين رأوا المال وما كان يومئذ عد ولا وزن ، ما كان إلا قبضا ، ثم وزعها في الناس .

وفاة العلاء

بعد أن تسلم العلاء كتاب أمير المؤمنين رضي الله عنه بالولاية على الكوفة ذهب ليتسلم عمله ، ولكن المنية فاجأته في الطريق عند مكان يسمى تياس قريباً من الصعاب .

قال ابن سعد :

والصعاب من أرض بني تميم .

وكان ذلك عام أربعة عشر من الهجرة أو واحد وعشرين من الهجرة على اختلاف في مصادر التاريخ ونحن نرجح ان وفاة العلاء كانت عام واحد وعشرين هـ . وكان موته عقب انصرافه من الحج الذي يجعل الانسان طاهراً مبرأ من ذنوبه كيوم ولدته امه .

ونختم الحديث عن العلاء بهذه السطور المضيئة التي كتبها اللواء محمد شيت خطاب عن العلاء فقال :

لقد كان العلاء مقداماً شجاعاً ذا إرادة نافذة وشخصية قوية يثق بجنوده ويحبهم ويثقون به ويحبونه ، له ماض مشرف مجيد .

وكان في معاركه يطبق مبدأ (المباغتة) أهم مبادىء الحرب على الاطلاق. مباغتة المكان كما فعل بعبور صحراء الدهنـــاء ليصل إلى البحرين بأسرع وقت ممكن مـــن اتجاه لا يتوقعه المرتدون – بالرغم من أخطار عبور هـــذه الصحراء ، ومباغتة في الزمان كما فعل في مهاجمة المرتدين من أهل البحرين في في وقت لا يتوقعونه .

يذكر التاريخ للعلاء سفارته بين النبي ﷺ وبين ملك البحرين المنـــذر بن ساوى ونجاحه في سفارته ، مما أدى إلى إسلام ملك البحرين وأهل البحرين .

ويذكر له انتصاراته الحاسمة على أهل الردة في البحرين على الرغم من رصانة قوتهم لاعتمادها على معاونة الفرس الذين ساعدوا المرتدين ماديا ومعنويا وشجعوهم على الردة ، وبذلك حرم الفرس من موطىء قدم مهم لهم في الخليج العربي يعتبر الخط الدفاعي الأمامي عن العراق وبلاد فارس .

ويذكر له أنه كان أول قائد مسلم بعث قائداً مسلما في البحر للفتح فعرف العرب السفن وركوب البحر وكانوا لا يعرفون غير الابل سفن الصحراء .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، القائد الفاتح ، العلاء بن الحضرمي .

خاتمة

لما كان المقصود الأسامي من مثل هـــذه البحوث ، هو الانتفاع بالدروس المستفادة من حياة هذا القائد العربي ومواقفه المختلفة ، كان من الأليق والأنسب تمشياً مع هذا الغرض النبيل ، أن نستعرض بايجاز بعض الصفات والمواقف التي مرت بنا في حياة العلاء بن الحضرمي حتى نستنبط ما يمكن التأسي به والافادة منه . وأول ما يلفت أنظارنا من هذه الدروس هو :

قوة العقيدة ورباطة الجأش

ويبدو ذلك في مواقف الشدة التي تعرض لهـا العلاء بن الحضرمي وجيشه كفقده الزاد والماء والرواحل في بادية الدهناء ، دون ان يعتريه اضطراب أو ضعف في حسن اعتقاده في مدد الله سبحانه وقد استطاع رضي الله عنه ان ينقل هذه الطمأنينة وذلك الثبات إلى بقية الجيش حتى اجتازوا هذه الأزمة الرهيبة بسلام وأمان .

ويشبه هذا الموقف عبوره الخليج وهو يطارد عدوه إلى دارين . ومن الطريف الذي يدل على تأصل هذا الطبع في بطلنا انه رضي الله عنه، استطاع ان يستفيد في هذا الموقف الأخير بشدة الموقف الأول ، واستغل النجاح والنجاة من الشدة الأولى لتسهيل الموقف الأخير على جنود الجيش وكان له ما أراد . حتى اصبح شعار الجيش عند مخاطرة العبور : والله لا نهاب بعد الدهناء شيئاً .

والذي يجب ان نستخلصه لأنفسنا من هذا الدرس ان قوة العقيدة لا تجعل

أمامنا شيئاً مستحيلاً . فهي سلاح يصنع العجب ، على المستويين .

ومن الدروس الواضحة في حياة العلاء :

وجوب الارتباط الكامل بالقيادة

ويبدو ذلك في تاريخ العلاء سلباً وإيجاباً . ففي النـــاحية السلبية لاحظنا غضبة عمر بن الخطاب على العلاء حين عبر الخليج للمرة الثانية بدون الرجوع إلى القيادة العامة بالمدينة وكيف كان اثر هذا الحادث شديداً وسيئا إلى الحد الذي أساء إلى العلاء نفسه وعرّضه إلى لوم شديد من المؤرخين القدامى والمعاصرين. ومما اضطرنا للوقوف طويلا في محاولة منصفة للتخفيف من حدة هذا الأثر أماالمواقف الايجابية التي تشهد للعلاء بالارتباط بالقيادة فهي اكثر من ان تحصى ، نذكر منها :

التزامه الكامل بتنفيذ وصية النبي ﷺ له بشأن أبي هريرة حين غادروا المدينة إلى البحرين لأول مرة وأراد العلاء بن الحضرمي المبادرة بتحقيق وصية النبي ﷺ فجعل يسأل أبا هريرة عن رغباته لينفذها له . كذلك يظهر هذا الارتباط فيما كان يرده العلاء للرسول ﷺ من الأمور التي تعرض له فيكتب إلى النبي منتظراً أوامره ليحكم بها كما يبدو هذا الخلق عند موقفه من امر العزل الذي وصله مـــن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بسبب حملته التي غزا بها بلاد فارس عـــن طريق البحر بدون إذنه ، فقد أذعن العلاء لأمر العزل ، وفي هدوء والتزام توجه إلى سعد بن ابي وقاص ليعمل في صفوف الجيش الاسلامي واحداً من الجنود الأخفياء. وليس أدل على قوة التزام العلاء بتنفيذ روح العقوبة التي فرضها عليه أمير المؤمنين عمر ، من انه بعد فترة استطاع ان يسترد اعتباره ويستعيد ثقة امير المؤمنين فعيّنه واليا واميراً على الكوفة نفسها .

والدرس الذي لا يفوتنا من هذه المواقف وامثالها ان نلتزم بهذا الفقه الذي يربط بين القاعدة والقيادة الصالحة على جميع المستويات كجزء من كيان الأمة .

ومن اهم الدروس التي اخذناها من صحبتنا للعلاء ومعرفة تاريخه :

القدوة العملية

فالقدوة العملية الصالحة أقوى تأثيراً في إقناع الناس ، من الدعايات النظرية البعيدة عن التطبيق وقد كان العلاء وجيشه المؤمن يقنعون النـــاس بعدالة القضية التي يمثلونها بالأعمال وليس بالأقوال ولعلنا نذكر موقف الراهب الذي رأى بعينيه وسمع بأذنيه قوة الإيمان والتغلب على الشدائد والمفاجآت فأعلن إيمـانه بالله ورسوله ، واصبح داعية يرغب الناس في حب المسلمين والاسلام .

فواجبنا ان نكون عمليين فيما نقوله من مباديء ، وما ننادي به من شعارات فان اخطر شيء على المباديء والقيم في نفوس الناس ان تنفصل القيم عن حياتنا العملية ، فنفقد التأثير في غيرنا ، سلبا وإيجابا على حد سواء .

كذلك من اهم الدروس التي يجب الالتفات اليها في موضوع العـــلاء بن الحضرمي :

درس الثقة في أصدق وعد بالنصر

ونعني بهذا الوعد ، وعد الله للمؤمنين بالنصر ، فقد كان العلاء رضي الله عنه في ذروة الثقة بالله في النصر . ولا زالت مناجاته لربه تملأ قلوبنا واسماعنا حين وقف على شاطيء الخليج ثم اقتحم البحر وهو يقول :

« يا أرحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا احد يا صمد يا حي يا محيي يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا انت يا ربنا » .

ثم امر الجيش ان يقول مثل ذلك . وعبروا تملأهم الثقة في نصر الله وكان الله عند حسن ظنهم به ، فحقق لهم النصر . ومن هذا القبيل في الثقة بما عند الله موقف الجارود بن المعلى مع قومه الذين ثبتوا على عقيدتهم مع قلة عددهم إلى جوار الأمواج البشرية الهادرة من اعدائهم المرتدين المزودين بالمال والسلاح والتأييد الفارسي السياسي والعسكري . ولكن الأمل الفسيح في الله والثقة المطلقة في

نصره اعطت الثبات للمسلمين المحصورين حتى انتصروا عـــلى الكثرة والغنى والسلاح والجاه .

على ان الدرس الذي يجب ان لايفوتنا بحال هو في :

تطبيق الاصول العسكرية والفنون الحربية

فهذا المعنى كان في غاية البروز عند الصحابة كما بيّنا من تاريخ العلاء ومن كانوا معه . فهو في نفس الوقت الذي كان يلجأ إلى الله ، ويعلم جنوده اللجوء الى الله والاعتماد عليه وحده . في نفس هذا الوقت كان يطبق الاصول العسكرية تطبيقا غاية في الدقة ولا يفوته ان يتعامل مع اعدائه وفق القواعـــد الحربية الصحيحة التي تكون دائمـــا مقدمة طبيعية للنصر والفوز ، وهـــذه بعض الامثلة :

الاهتمام بالاستطلاع وجمع المعلومات

لا شك ان آخر التطورات في الحروب العالمية ، وضحت مدى اهمية معلومات الجيش عن خصمه ، ولأهمية هذه الأصول في الحرب والمعارك تسابقت الدول في هذا المجال تسابقا رهيبا وصل الى اختراع وسائل الاستطلاع الألكترونية المعقدة التي كان لبلادنا ولأمتنا العربية حظ تطبيق احدث نظرياتها فوق ارضها الحبيبة واجواء سمائها الغالية ، ولقد رأينا الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي ينتصر في اولى معاركه ، بسبب اهتمامه بجمع المعلومات عن خصومه ، ويبدو ذلك حين ارسل العلاء من يستطلع له امر جيش (القائد الطاغية الحطم) الذي كان يحاصر الجارود بن المعلى ورجاله المؤمنين وقد استطاع الجندي الشجاع المسلم (عبد الله بن حذف) ان يجمع المعلومات الدقيقة ويعود بها إلى العلاء ، واستطاع العلاء ان يستعمل هذه المعلومات وهي (طازجة ساخنة) اي قبل ان يتغير الموقف وفق احدث النظريات العلمية الصحيحة في فن الاستطلاع والاستكشاف .

وحين قصر العلاء في معرفة معلومات دقيقة عن طبيعة الجيوش الفـارسية

داخل أراضيها ومواقعها وأعدادها وأسلوب تصرفها. كان نصيبه الفشل في حملته البحرية التي سببت له كثيراً من اللوم والمؤاخذة .

والدرس الذي نتعلمه من وراء هذين المثالين هو وجوب المعرفة لكل مايمكن معرفته عن أسرار عدونا في أعداده وسلاحه وتخطيطه وتفكيره ، وبذل الجهد الجهيد في سبيل التوصل علمياً إلى المستوى الذي يجعلنا قادرين على رصد حركات العدو ومعرفة خباياه .

المفاجأة ،والتطويق والالتفاف (أو حركة الكماشة)

لقد طبق العلاء بن الحضرمي هذه القاعدة بشكل ناجح فقد استطاع أن يبعث إلى الجارود بن المعلى وهو تحت وطأة الحصار بخطة التطويق والالتفاف حول العدو ، بل واستفاد من وجود الجنود المسلمين داخل الحصار . فقد كانت الخطة تعتمد على أن يهاجم العلاء رجال الحطم من الخارج هجوماً مفاجئاً وفي نفس اللحظة يقوم الجارود بهجوم مماثل من الداخل فيقع الأعداء داخل فكي الكماشة . وتكون الضربة المفاجئة للعدو ضربة مزدوجة يدهش من هولها جنود الأعداء . وهذا هو الذي كان كما سبق بيانه .

تأمين الظهر من خطر الجيوب

كذلك نرى العلاء حين انتصر على أعدائه ، وأراد مطاردتهم لم يتقدم إلى المطاردة دون دراسة للموقف ، وتطبيق علمي سليم لأصول الحرب ومبادئها الصحيحة . ولذلك عمد قبل البدء في مطاردة العدو نحو جزيرة دارين ،إلى تأمين المنطقة من الجيوب والكمائن التي قد تضرب الجيش العربي المسلم من وراء ظهره في نفس الوقت احتفظ العلاء بالجيش قوياً متماسكاً حتى يواصل مسيرته ، ويستطيع تعقب الفارين من أعدائه بمهارة وقدرة .

وهكذا رأينا العلاء يحقق غرضين :

١ — الاحتفاظ للجيش المهاجم بقوته .

٢ — تأمين ظهر الجيش .

ولتحقيق الغرض الأول أبقى العلاء الجيش على وحدته دون أن يفتته إلى فرق تقوم بواجب المطاردة وفرق اخرى تبقى لتأمين المؤخرة وحمايتها من الخلف وإنما احتفظ بالجيش كله معه .

ولتحقيق الغرض الثاني نراه يبادر إلى حماية المؤخرة باستغلال الكفايات المحلية القوية الموجودة اصلا في المنطقة من أولئك الذين ثبتوا على إسلامهم وعقيدتهم ، كالمثنى بن حارثة وغيره ، فكلفهم بمهمة تأمين ظهر الجيش ، بينما اندفع هو بالجيش وراء العدو المنهزم نحو الجزيرة .

وهكذا أفاد العلاء من تطبيق القواعد العلمية بدقة ومهارة ، دون ان يصرفه واجب عن واجب .

ومن الدروس الهامة التي مرت بنا في حياة العلاء بن الحضرمي وتاريخه المشرق بالهدى والنور :

إعداد الرجال وإبراز القادة

وهذا الدرس في حياة العلاء من أهم الدروس وآكدها ، لأنه امتداد عضوي لحياة الصحابة مع النبي ﷺ ، فلقد كان رسول الله ﷺ ، يربي حوله أكرم القيادات وأروع الكفايات وأجل المواهب .

فالرسول نفسه هو الذي أطلق – عليه صلوات الله – كلمة « الصديق » على أبي بكر رضي الله عنه .

وهو – ﷺ – الذي قال عن عمر بن الخطاب انه كان ينظر بنور الله .

والرسول نفسه – بحاسة تربية المواهب وإنماء الكفايات – هو الذي منح خالد بن الوليد اللقب القيادي العسكري فقال عنه « سيف من سيوف الله » .

واطرد المنهج السوي المبارك حين قال النبي ﷺ عن أبي عبيدة بن الجراح إنه أمين هذه الأمة .

وكلمة النبي الكريم عن عثمان بن عفان : « ألا استحيي من رجل تستحيي منه الملائكة » تمضي على نفس الطريق .

وكلمته عن الإمام علي بأنه أقضى الأمة .

ومن هذا القبيل حديث النبي ﷺ عن الصحابي الجليل سلمان الفارسي حين قال عنه : سلمان منا أهل البيت »

وعن غيرهم وغيرهم من الصحابة الأجلاء ، قال اعظم قائد إنساني سيدنا محمد ﷺ : أوصافاً رائعة تستنهض الهمة ، وتبعث الكرامـــة ، وتصنع الرجولة والشرف والبطولة .

ومع وجود الفارق الضخم الملموس بين عظمة النبي ﷺ ، وعظمة الرجال الذين كانوا حوله مهما بلغ قدرهم ، إلا ان الوصف الذي كان يحرص الرسول ﷺ ، على وصفهم به ، هو وصف « الصحبة » بينما هم تلاميذ النبي ومريدوه وجنوده وأتباعه ، إلا ان الوصف المفضل في العرف الإسلامي لهم هو :

أصحاب النبي . حيث يقول : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

هذا مع ان الجندية ، والتلمذة، والتبعية للنبي ﷺ أوصاف يعظم بها ويشرف، كل مؤمن أو مسلم على قدر ما يحقق لنفسه من معاني الطاعة والالتزام لمقتضى التبعية والتلمذة لسنة النبي العظيم ﷺ ، لكن النبي كان يعلمنا على ارفـــع المستويات وأرقاها أن لا نسمح لأنفسنا ، مهما كانت أقدارنا ، ان نفرض حَجْراً على احد من المسلمين، يحول دون نماء موهبته ، او تأكيد شخصه وكرامته ، ومن هنا كان الوصف المختار للذين عملوا مع النبي هو « اصحاب النبي » دون غيره من الأوصاف تأكيداً للمعطيات الإلهية في النفس البشرية عامة، وتقريراً لعبقرية المواهب الانسانية .

وهكذا استطاع النبي ﷺ ، بهذا النهج التربوي الفـــذ ، أن يترك وراءه أحسن الرجال ، واعظم القادة ، واعدل الحكام .

ووجدت العقول الإنسانية الممتازة في كل عصر زاداً تكتب عنه من الاصحاب وتستلهمه الخير والنفع لبني الإنسان ، وتسنى لمفكر واحد من كبار المفكرين في عصرنا الحديث ان يكتب ، لا عن تاريخ الصحابة فقط ، وإنما يكتب عن عبقرياتهم ، كعبقرية الصديق وعبقرية عمر وعبقرية خالد ... الخ [1] .

---

(١) العقاد في عبقرياته .

إن هذا الدرس الذي لاحظناه في تاريخ العلاء ، هو — كما نرى — له عمقه الإسلامي ، وبعده الديني الأصيل الذي يجعله من اهم الدروس التي يجدر بنا ان نلتفت اليها ، حتى نسمح للبراعم ان تتفتح ، وللنبت ان يثمر ، وللحياة ان تعمر وتزيد ، وللحق كي يعود لأهله واصحابه .

هذه مجموعة من الدروس التي يجب ان نقيس عليها غيرها للافادة بها ومنها ونحن ندرس حياة اصحاب رسول الله ﷺ ، والله اكرم مسؤول ان يهدينا سواء السبيل . « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

والآن إلى شخصية المثنى بن حارثه رضي الله عنه ، وهو الصفحة الثانية من صفحات ابطال الإسلام .

فهرس الكتاب

٥ مقدمة
١٠ مدخل
١٣ العلاء بن الحضرمي نسبه .
١٣ اخوته .
١٤ إسلامه ومكانته .
١٥ ولاية العلاء في عهد الرسول ﷺ للبحرين .
١٥ مكانته عند ابي بكر .
١٥ رأي عمر في ولاية العلاء بن الحضرمي .
١٦ العلاء في حياته العملية .
١٨ سياسة العلاء الحاكم .
١٨ العلاء القائد .
٢٢ موقف العلاء في حروب الردة .
٢٥ خطورة المهمة التي كلف بها العلاء من حيث المكان والسكان .
٢٦ متاعب الطريق تتحول إلى مبشرات بالنصر .
٢٧ الموقف في البحرين حين وصول العلاء اليها .
٣٠ وصول العلاء .
٣١ يقظة العلاء انقذت المسلمين المحصورين .
٣٢ مصير قائد المرتدين في هذه المعركة .
٣٤ تطبيق الأصول العسكرية وإبراز القيادات .
٣٥ جرأة العلاء بمقاييس عصره .

٣٧ رائد العبور
٣٨ وقفة لا بد منها مع فقه الصحابة في مثل هذه المواقف
٤٠ نتيجة المعركة في دارين.
٤٢ نجاح العلاء في السيطرة على المنطقة .
٤٣ غزو بلاد فارس من ناحية البحرين
٤٨ اهمية الأبلة .
٤٩ اهمية الأهواز .
٥١ نموذج آخر .
٥٢ مناقشة لا بد منها .
٥٣ كتاب عمر إلى عتبة .
٥٩ بيان وتوضيح .
٦٠ رواية الامام مسلم .
٦٢ المعارك البحرية في الاسلام .
٧٣ موقفه بعد عزله .
٧٣ العلاء يسترد اعتباره .
٧٥ أمانة العلاء بن الحضرمي .
٧٥ وفاة العلاء .
٧٧ خاتمة .
٧٧ قوة العقيدة ورباطة الجأش .
٧٨ وجوب الارتباط الكامل بالقيادة .
٧٩ القدوة العملية .
٧٩ درس الثقة في اصدق وعد بالنصر .
٨٠ تطبيق الأصول العسكرية والفنون الحربية .
٨٠ الاهتمام بالاستطلاع وجمع المعلومات .
٨١ المفاجأة والتطويق والالتفاف .
٨١ تأمين الظهر من خطر الجيوب .
٨٢ اعداد الرجال وابراز القادة .